17 em Année No. 834

Lundi — 27 — 6 — 1949

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

ص

١٠٠ في مصر والسودان

١٥٠ في سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ٨٣٤ « القاهرة في يوم الاثنين أول رمضان سنة ١٣٦٨ — ٢٧ يونيو سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

٩ ـ أمم حــــائرة

المرأة والانتخاب

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر المفوض بالمملكة السعودية

ثار جدال واشتد نزاع على اشتراك المرأة في الانتخاب. وحسبي في هذا المقال أن أسور للقراء جدالا في مجلس ضم جماعة من أولي العلم تختلف آراؤهم في هذا الشأن.

تحدث حاضرو المجلس في بعض ما نشر في الصحف تأييداً لمطالبة المرأة، أو المطالبة لها بالانتخاب، وإنكاراً لهذه المطالب.

فبدأ أحد المتكلمين الجدال إذ قال:

حقٌ للمرأة كيف يجحد، وكرامةٌ لها كيف تهان، ومشاركة في تدبير أمور الأمة كيف تحرَّم عليها؟ لا أرى لمنكر حجة، ولا لمخالف عذراً ».

قال أحد المتحدثين: « وددت أنا تجنبنا هذا الحديث في هذا المجلس، ولكن صاحبنا لا يجد لمنكر حجة ولا لمخالف عذراً، فحق علينا أن نبيّن حجتنا وعذرنا.

إنا نعوذ بالله من السياسة ومكايدها، وعصبية الأحزاب وطرائقها، وتحيز الصحف وجدالها.

ونعوذ بالله أن تسابق المرأة في هذا المضمار، وأن تصلى بهذه النار. ونعيذها بالله أن تشغل نفسها بهذا اللجاج، وأن تزج نفسها في هذا المجاج، ونحذر أن تمتد ضوضاء السياسة إلى سكينة البيت، وخلافُ الأحزاب إلى وفاق الأسرة.

إن من شئون الأمة لشئوناً ينبغي أن تُنزَّه عن الجدال، وتُصان عن النزاع والخصام، ويكتنفها الوفاق والوئام، وتحوطها السكينة والسلام، وأولها شئون الأسرة.

إننا لا نرضى لطلبة العلم أن يعملوا في السياسة فيتفرقوا شيعاً، ونود أن تكون معاهد التعليم للأمة كلها، يجمع طلابها الحق، ويؤلف بينهم العلم، ويوكد أخوتهم التعاون على كل بر، والجهاد لكل خير. وقد خبرنا من عمل السياسة في الطلبة ما خبرنا، وبلونا من شرها ما بلونا.

وإن الأمم تنأى بالجيوش عن معارك السياسة وخصومات الأحزاب، لأنهم للوطن كله، وللأمة جميعها، والوطن واحد والأمة واحدة.

ونعوذ بالله من جند يختلف أحزاباً ويتفرق طرائق! إن الجند سياج الوطن المنيع، وحرزه الحريز، ينبغي أن تجتمع قلوبهم وألسنتهم وأيديهم على الذود عن ديارهم، لا تفرقهم الأهواء، ولا تتقسمهم النزعات.

وشئون أخرى للأمة لا تصلح إلا باجتماع الرأي فيها، واتفاق القلوب عليها. وشئون الأسرة أولى هذه الشئون بالتنزه من

التحزب ، والتطهر من التعصب .

والمرأة ربة الأسرة ، وملكة البيت ، تنشر فيهما السلام والسكينة ، وتبعد عنهما النزاع والضغينة ، فتربّي أولادها للوطن كله ، وتنشّيء ناشئها للأمة جميعها . مثّل لنفسك زوجين اجتمعا على مائدة ، وقد تعصب كل منهما لحزبه ، وجادل عنه ، وذكر حزب الآخر ونال منه ، واستمع الأولاد لجدال الأبوين ، والجدال طريق الخصام ، والخصام رسول العداوة والبغضاء . ثم انظر كيف تكون العاقبة .

هذا جانب واحد من جوانب عمل النساء في السياسة ، وآفة واحدة من آفات تمصهن ، ودخول التحزب إلى بيوتهن .

نناشدكم الله والوطن أيها الدعاة أن تدعوا لنا المرأة نسكن إليها من ضوضاء العيش ، ونفر إليها من خلاف المذاهب ، ونستريح عندها من جدال الأحزاب ، وننعم في جوارها الحب والود ، والسلام والبر .

نناشدكم ألا تجعلوا من كل أسرة لجنة حزبية ، أو لجاناً متعددة لأحزاب مختلفة ، وألا تنقلوا الجدال والخصام ، والافتراء والبهتان ، إلى المعبد الذي نأوي إليه ، ونلتمس الدعة والسكينة والألفة والمحبة فيه .

حسبنا — أيها الإخوان — هذا النزاع الدائم ، والدويّ المستمر الذي نلقاه في كل طريق ، وكل نديّ ، ونقرؤه في كل صحيفة ، ونسمعه في كل مذياع . فنحن منه في شغل بالنهار وهمّ بالليل .

دعوا المرأة تتزوّد من العلوم والآداب والأخلاق ، وأبعدوها من هذا المعترك لتكون داعية وفاق ورسول مودة ، ولتكون — كما خُلِقَتْ — مصدر خير وبر ، وألفة وحب .

قال الأول — وقد احتدّ قليلاً — : « إنكم إذاً تحرمونها المشاركة في أمور الأمة ، وتحرمون الأمة تدبير المرأة ، وهي — كما تعترفون — مصدر خير وبر وألفة ووفاق ، فلماذا تحرمون الأمة من برّها ووفاقها في بعض شئونها ؟ »

فأجابه مناظره : « كلا ، كلا ، بل تشارك خير مشاركة بالتربية والتهذيب ، والتعلم والإرشاد ، وتدبّر أجدى تدبير بالقيام على أخلاق النشء وأفكارهم ، وبدعوتهم إلى الحق والخير ، وتنشئهم على العدل والإحسان ، وإشراب قلوبهم المودة والمحبة ، وتعويدهم العدل والإنصاف .

إنها إذاً تشارك وتدبّر بقلبها الطاهر ، وفكرها المبرأ من العصبية ، وتهدي الأمة إلى الخير دون تحيز ، وترشدها إلى الحق دون تحزب ، فتكون داعية ألفة لا فرقة ، ومنبع سلام لا خصام . وليس هذا بعيداً من المرأة ، إن قبلتم فيها دعوتنا إلى التكريم والتقديس ، ورضيتم لها سلطانها في الأسرة ، ومكانها من الأمة .

إننا نرضى شركتها في كل أمر ما عدا الخصام والجدال ، ونقبل تدبيرها في كل شأن حاشا معارك السياسة ومكايد الأحزاب .

إننا ننزه المرأة — ومكانها في القلوب مكانها — أن تباشر الخصام ، وتتخلل الزحام ، وتسير في مواكب الانتخاب ، وضوضاء المظاهرات ، وترى منافسها وترميها ، وتبهتها وتبهته .

إنا والله نُشفق عليها أن تسير في المدن والقرى ، وتطرق الأبواب ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وإسراراً ، وتلقى الكريم واللئيم ، والحر والنذل ، والغليظ والرقيق ، مستجدية التأييد ، منفقة من الوعود !

ثم ضحك المجادل وقال مازحاً : « ولسنا نعرض لما وراء هذا من الأقاويل حين يقول السفهاء : هذه المرشحة جميلة ، وتلك دميمة ، وهذه بسّامة ، وتلك متجهمة ، وتلك غليظة في القول ، وهذه لينة ... وهلم جرا .

وإنا والله لنرثي لها حين نتمثلها وقد ابتُليت بالنيابة فجاءت الوفود تستنجز الوعود ، وطرق الناخبون دارها كل حين ، يرفعون الشكايات ، ويقتضون الحاجات ، ويخرجونها من أسرتها طوعاً أو كرهاً ، ويشغلونها عن عيالها ، شاءت أم أبت !

إنا وايم الحق لنشفق على الرجال ونرثي لهم حين نراهم في معركة الانتخاب وبعدها ، وحين نرى تحكم المُبْطِلين فيهم ، وتدلل الطامعين عليهم ، حتى لنتمنى أحياناً أن يُعفى الرجال من الانتخاب ومطالبه ، والتمثيل ومتاعبه . . وكم عرفنا وبلونا وأشفقنا ورثينا !

فاشتد صاحبه في الجدال ، واحتد في الحوار ، قائلاً : « أيها المدعون المبطلون ، والمجادلون الجاهلون ، إنكم تعطلون نصف الأمة أو أكثر ، وتحرمونه الإبانة عن رأيه ، والإعراب عن حجته في المجالس النيابية . والتمثيل لا يصح حتى يمثل كثرة الأمة

ويبين من آرائها ، فكل أمة لا تشارك نساؤها فى الانتخاب والنيابة ، لا يصح تمثيلها ، ولا يجوز فى الحق تصرفها ... هذه حجة دامغة ، فكيف تحتالون لدفعها ؟ »

قال له صاحبه : قلت آنفاً إن على النساء تنشئة الأجيال وتربيتها ، فآراؤهن منبثة فى نفوس الرجال والنساء ، ممثلة فيها ، وأقول الآن : إن مدار تمثيل الأمة على أن يكون لكل مذاهبها وآرائها من يتكلم بها ويجادل عنها فى مجالس النيابة . التمثيل صحيح ما تحقق هذا الشرط ، فإن عمدت أمة إلى تقليل مشاغل الانتخاب بتقليل عدد الناخبين بأية وسيلة دون إجحاف بطائفة بعينها ، أو تمييز جماعة على أخرى . كان الناخبون ممثلين لآراء الأمة ، وصح التمثيل ، ولم يضر هذا التقليل .

هب أنك أخذت دفاتر الانتخاب فى بلد فحذفت نصفها بالاقتراع ، ألا يكون النصف الباقى ممثلا أفكار هذا البلد ونزعاته ؟ أتقول إن مذهباً أو رأياً فقد أصحابه بهذا الاقتراع ، إن انتصر للرأى ستون من مائة ، أو ثلاثون من خمسين ، أو خمسة عشر من خمسة وعشرين ، لم تختلف النتيجة ، ولم تتغير النسبة .

وليس النساء طائفة ، أو طبقة فى الأمة ، ولكنهن شريكات فى كل أسرة وفى كل جماعة ، فإن أعفت أمة نساءها من مشاغل الانتخاب تمكيناً لهن مما هو أولى بهن ، وتنزيهاً عن معارك السياسة ومطاعن الانتخاب ، لم يخل هذا بتمثيل الأمة ، ولم ينقص من كرامة المرأة .

فسخر صاحبه بهذا الرأى وشرع يجادل فيه ، فصاح به : لقد ضاق الوقت ، لا تجادل ، سأدع كل حجة إلا حجة واحدة ، وأتجنب كل القضايا إلا قضية فذة ، فإن أجبتم عنها ، وخلصتم من سلطانها ، كان بيننا وبينكم ما شئتم من جدال .

إنى أقول لمن يطلب الانتخاب للنساء ، أنطلب هذا عن رضا من النساء أو كره ، أنكرههن على الانتخاب ، أو نأخذ برأيهن فيه قبولا ورداً ؟

إن فيصل الأمر بيننا وبينكم أن تبدأوا فتعرفوا آراء النساء فى قضيتهن هذه ، أيردن الانتخاب أم يأبينه ، أيحرصن عليه أم يزهدن فيه ؟ فاستفتوا النساء قبل أن تطلبوا لهن ، واسألوهن قبل أن تدّعوا عليهن .

فإن استفتيتم النساء ، فأعرض أكثرهن عن المشاركة فى الانتخاب ، وأبين أن يكون لهن هذا العناء ، فليس لفضول أن يتكلم عنهن .

وإن قلتم إن عسيراً أن يعرف رأى النساء فى أحوالهن الراهنة ، قلنا فكيف إذن تحاولون إشراكهن فى الانتخاب ؟ إنهن إن عجزن عن الإعراب عن آرائهن فى قضيتهن فهن فى غيرها أعجز ! وإن قلتم إن أحوال النساء تحول الآن دون تعرف آرائهن ولكنها حال تزول ، وسيكون لهن من الثقافة ما يعربن به عن أفكارهن من بعد ؛ قلنا فانتظروا حتى تحول الأحوال ، ثم عودوا إلى الجدال .

إنها لحجة دامغة لا تستطيعون الفرار منها ، وبرهان مفحم لا تملكون الجدال فيه !

تعرّفوا رأى النساء فى أمرهن ، ولا تفتروا عليهن ، ولهن القول الفصل ، وعلينا السمع والطاعة .

وأخذت المجادل سَورة الحجة ، فوجم وفكر ، وانتهز الحاضرون الفرصة ، فأنهوا الجدال وانفض المجلس .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

صور من الحياة :

قبعة تتزوج

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ٢ —

آه ، يا صاحبي ، لقد خرجت من لدن سعادة البك بعد أن سامك الاحتقار والمهانة ، وبعد أن سفه رأيك وازدرى عقلك ، وبعد أن قذف بك إلى خارج الدار ليحول بينك وبين أن تعبث بكرامة ابنته الشابة ، أو أن تلوث شرفها .

خرجت وفى قلبك أسى ولوعة ، وفى نفسك هم وضيق ... فلشدّ ما آذاك ما رأيت من إباء الفتاة المصرية ومن ترفعها ! ولشد ما أزعجك ما لمست من كبرياء الأب المصرى ومن صلفه ! ولشد ما أفزعك ما أحسست من صلابة الأسرة المصرية ومن تماسكها ! وحز فى نفسك أن يفلت الطائر الجميل من بين يديك بعد أن ظفرت به ، فيطير معه أمل عقدته على جمال الفتاة وعلى جاه الأب وعلى ثراء الأسرة .

وحاولت أن تدارى خيبة أملك خلف ستار من الكذب والرياء ، فذهبت تحقد على الفتاة المصرية وتتهمها بألوان من النقائص ، وتقذفها بفنون من الافتراء ، لأنها استعصمت على خداعك الوضيع ، وتعمت على أساليبك الثعلبية ، وضنت بشرفها أن تعبث به يد ، وصانت كبرياءها عن أن تنحط إلى أسفل .

وقلت لى — ذات مرة — : « إن الفتاة المصرية إنسانة ضعيفة العقل ، خاوية الذهن ، واهية الخلق ، سقيمة الفكر ، تنزعج لكل صوت ، وتفزع من كل نأمة ، وتضطرب لكل حادثة . يلذ لها — دائماً — أن تعيش على حيد الحياة ، بعيدة عن نور المدنية لأنه يعشى بصرها ، وفى منأى عن دوافع العيش لأنها تصمق أعصابها .

هـذا هو تاريخها — تاريخ العزلة والإهمال — يتدفق فى عروقها دماً قذراً تافهاً ، وهى لا تستطيع أن تنهض بعمل ولا تصبر على مسئولية . وإن تعلمت أضافت سخفاً إلى سخف فيها ، وضمت سفهاً إلى سفه ، وجمعت بلاهة إلى بلاهة ، فهى تتحدث بلسان العلم حديثاً فيه السخف والسفه والبلاهة جميعاً ، وهى ... »

فقلت لك مقاطعاً : « وهى فتاة فيها الشرف والكرامة والانزواء عن الشرور ، والنأى عن الدنايا ، والفزع عن الفحش . وهى إن تعلمت كانت فى الدار صاحبة ورفيقة ، وفى الجماعة نبراساً وضياء ، وإن تزوجت أصبحت أماً وزوجة ومدلمة » .

وقلت لى فى ملل وضيق : « إن فيها الرجعية والجمود وانغلاق الذهن وفساد الرأى » .

فقلت لك : « وإن فيها بواعث الحياء والخجل والترفع والإباء ، ولكنك أنت — يا صاحبى — قد لبست القبعة حيناً ، فنفثت فيك من روحها ودمغتك بأسلوبها ، فهل كنت تؤمن بما تقول حين اندفعت إلى فلان بك فى غير أناة ولا صبر تخطب إليه ابنته وهى فتاة مصرية ... »

فأرتج عليك ، واضطرب ذهنك ، وتبلبل عقلك ، وخانتك فلسفتك ، وأنت فيلسوف كبير .

لا عجب — يا صاحبى — إن كانت قد عصفت بك صاعقة عنيفة يوم أن طردك سعادة البك من داره فتزلزل كيانك وتصدع قلبك ، لأن رجلاً مصرياً دعّك من داره فى غير هوادة ولا لين ، وامتهنك وأنت فيلسوف عظيم لبس القبعة حيناً من الدهر !

وآدك أن تصبر على ما أصابك من سعادة البك ومن ابنته ، فانطلقت تنوء الحقيقة وتمسخ الواقع لتثلب الأسرة المصرية وتحط من قدرها بحديث تافه فيه المغالطة والمكابرة .

وذهبت تلقى أعباء نفسك فى نُزل قاهرى الوقع أجنبى الصبغة بين يدى سيدة عجوز ، ألمانية اللسان يهودية النزعة ، ومن حوالها بناتها الثلاث ، وإن الواحدة منهن لترف رفيف الزهرة النضرة حين تنفح عطرها الجذاب لتأسر به القلب وتسيطر على الفؤاد .

وسكنت إلى هذا النزل ، تعيش بين العجوز وبناتها تمثالاً صامتاً لا ينبض بالحياة ولا يخفق بالإنسانية ، فأنت تقضى يومك منطوياً على نفسك فى حجرة لا تندفع إلى حديث ولا تنشط إلى سمر ، ولا تبسم لفاكهة ، ولا تنزع نفسك إلى رفيق . وضاقت العجوز بأسلوبك فى الحياة ، فهى تطمع فى أن تراك طلق الوجه واليدين واللسان تنغمر فى حياة الأسرة تأخذ منها وتعطى ...

ضاقت بك العجوز وهى ذات مكر وخداع ، وهى ذات حيلة ودهاء ، لا يعجزها أن تتوسل إلى غايتها بأساليب شيطانية ، ولا يقعدها أن تبلغ الهدف بأفانين أرضية . وانصرفت أنت إلى خلوتك وشغلت بخواطرك ، ولكن العجوز اليهودية لم تنصرف عنك ، فراحت تسعى إليك ، وتنفث فيك سمومها ، وتنقض عليك — بين الحين والحين — تريد أن تنتزعك من خلوتك ،

وأن تزعجك عن وحدتك ، وأن تكشف عن سرك ، وإن لفتاتها لسحراً ، وإن لحديثها لطلاوة ، وبين يديها فتياتها الثلاث وإن فيهن الدلال والجمال وفيهن السحر والجاذبية . وأخذت العجوز اليهودية تتلو رقى السحر حواليك وتتقرب إليك ثم تنشر عليك شباك التمويه والداهنة لا تهن عزيمتها ولا تفتر قوتها . واستطاعت — بعد لأى — أن تجذبك إلى المائدة الخضراء لتسرق مالك ؛ واستطاعت — بعد جهد — أن تسقيك الكأس الأولى لتسرق عقلك . وهكذا خطوت أول خطوة فى سبيل الانهيار العقلى والانهيار الاجتماعى ، ولكن عقلك المناق لم يتوضح الطريق فما شعرت بقدمك وهى تنزلق إلى الهاوية . لقد غطى على عينيك ستار من لذاذات كنت تحسها وأنت تطوى لياليك بين فتيات النزل تصغى إلى حديثهن وتنتشى بخمرهن ونشاركهن اللعب والمزاح والعبث ، تتودد إليهن وهن يتملقنك فبدأت تهوى إلى أسفل وهن من ورائك يدفعنك إلى الهاوية والأم العجوز — من ورائهن — توسوس بأمر وتسعى إلى غاية . وراقتك الحياة الجديدة وفتنك زخرفها فاندفعت لا تجد رادعاً من دين ولا وازعاً من خلق على رغم أنك تخسر مالك وتقتل وقتك . لقد أسرك القمار والخمر وخلبك الجمال والإغراء فقعدت ترى أنك أنت

ألآن — يا صاحبي — رضيت بأن تصبح سجيناً فى قفص من ذهب ، وأغلق باب القفص من دونك حين تزوجت من أصغر فتيات النزل ، وهى فتاة عابثة لعوب ريقة الشباب غضة الإهاب ، ذات دل آسر وجمال خلاب ، وتراءى لك أن الفتاة قد مسحت بيدها الرقيقة البضة على أحزانك ، وآست بحديثها الجذاب جراحك العميقة ، وبدا لك أنك أمسيت روح هذه الدار وريحانها ، وأنك أصبحت فتاها المرموق وسيدها المدلل فاطمأنت نفسك وهدأت نوازعك . ثم أردت أن تحول بين المنزل وبين زواره من كل جنس — وهم كثر — فما استطعت إلى ذلك سبيلاً . وأوحت إليك زوجك الأجنبية بأن تتخذا داراً غير هذه تكون عش الغرام ومنزل السعادة ومهبط الأمان ، فانطلقتما معاً تهيئان داراً صغيرة فيها البساطة والأناقة وفيها النظام والترتيب وفيها الهدوء والاستقرار . ثم دفعتك الفتاة إلى السينما وإلى المسرح وإلى النادى ، ورافقتك إلى الملهى وصحبتك إلى المرقص ، وأنست بصحابك تأخذ منهم وتعطى ، وأقبلت أنت على رفاقها فى بشر وإيناس

وهكذا — يا صاحبي — وجدت فى زوجك الأجنبية ما افتقدته فى زوجك المصرية ، وحدثتك نفسك قائلة : « لا ضير فهذه الفتاة تستطيع أن تمهد لك السبيل الوعر وتفتح أمامك الباب الموصد ، ثم تدفعك إلى الهدف فى سهولة ويسر ، وأنت من ورائها تندفع حتى تبلغ » أما هى فكانت تجلس إلى أمها العجوز بين الحين والحين وتستمع إلى حديثها بين الفينة والفينة ، وإن العجوز لتعرض إليها بأمر وتغريها برأى وهى من ورائها تندفع . ووجدت الفتاة فى رفاقك لذة صرفتها عنها ، ولمست فيهم متعة شغلتها عن الدار

وعشت حيناً مع زوجك الأجنبية . وهى ألمانية اللسان يهودية النزعة شيطانية المشرب لا تجد غضاضة فى ما تفعل ولا تحس أذى فى ما تذر . ولكن دمك الشرقى ما تلبث أن ثار وهدر ؛ وإن للشرق لكرامة يعز عليه أن تنهار ، وإن له لشرفاً يضن به عن أن يمتهن ، وإنه ليبذل روحه ودمه دون أن يخدش . فأنت حين تغاضيت عن مثالب زوجك كنت قد نزلت عن شرقيتك وانصرفت عن مصريتك لتعيش زماناً فى جو القيمة وتردغ فى مباذلها ، ولكن دمك الشرقى ما تلبث أن ثار وهدر فعزمت على شىء . وأنى لك ما تريد وإن زوجك — ومن ورائها أمها — لذات حيلة ودهاء ، فهى تترضاك حيناً وتتوسل برؤسائك حيناً ، حتى إذا ضاقت بجهلك وعجزت عن ترويضك راحت تتهددك بأن تفصلك عن عملك إن وسوست لك نفسك أن تنالها بأذى ، وإنها لقادرة على أن تفعل .

وجاءك — ذات يوم — رجل من بنى جلدتها ذو جاه ومكانة يحذرك غب طيشك بقوله : « حذار أن تحدثك حماقتك فتطلق زوجك ، وإذن لا تلبث إلا قليلا حتى تطلقك الوظيفة ثم لا تجد بعدها ملجأ ولا ملاذاً إلا الشارع » وصمت لسانك حين شعرت بأن غلاً ثقيلا يشد على عنقك فلا تستطيع أن تفلت منه ، وحين خشيت أن تصبح صعلوكاً تتقاذفك مضلات الحياة وتصفعك متاهات الحاجة ، فألقيت السلم وكبت فى نفسك نوازع ونوازع لتكون فى الدار حملاً وديعاً تتلقى الأمر من زوجك الأجنبية الفاجرة فلا تجد مصرفاً عن الطاعة ، ولتكون خارج الدار ثوراً هائجاً تفرغ هم نفسك فى موظف صغير لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، وتنفس عن غرائزك المكفوفة فى خادم عاجز لا يملك أن يتقى شرك

ليتك ، يا صاحبي ، تعلمت من فلسفتك أن صلات الأسرة تزداد قوة ومتانة حين توثقها روابط الوطن والدين واللغة ، فهى تلم شعثها وتجمع ما تبعثر منها وتبذر فيها غراس الألفة والحنان وتنفث روح العطف والمحبة ! ليتك ، يا صاحبي ، ليتك ... !

كامل محمود حبيب

مثل من فهم الشعر القديم

في بحث أدبي جامعي

للأســـتاذ أبو حيان

قرأت هذه الأبيات التي أوردها بعد قليل، في كتاب من هذه الكتب الجامعية التي يتعرف بها الناس، عادة، ألوان النشاط العلمي في الجامعة. وقد زعموا أن هذا الكتاب من خير ما يمثل الجامعة في سنواتها الأخيرة، إذ لم يجل على الناس إلا بعد أن أقرته الجامعة وأجازت صاحبه، ورأته جديراً بأن يحمل أرفع ألقابها، وهو كتاب « الهجاء والهجاءون » تأليف الدكتور م. محمد حسين، مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول » كما يتألق به صدره.

أما هذه الأبيات فهي أبيات الخطيل بن أوس، أخي الحطيئة وقد قالها في حركة الردة وها هي ذي، كما أوردها صاحب ذلك الكتاب، نقلا عن الطبري، وكما ضبطها هذا الضبط الذي رآه:

فدى لبني ذبيان رحلي وناقتي ... عشية يحدى بالرماح أبو بكر
ولكن يُدَهْدَى بالرماح فهينه ... إلى قدر ما إن تقيم ولا تسري
ولله أجنـــاد تذاق مهانة ... لتحسب فيما عد من عجب الدهر

ثم يعلق على البيت الثاني، شارحاً له، بقوله:

« دهديت الحجر فتدهدى دحرجته. هينه كذلك هي بالنص (يريد: بالمصدر المنقول عنه)، لعلها من أهاب بالإبل والخيل إذا زجرها قائلا هاب هاب، فيكون المقصود أن هؤلاء الرجال يزجرون أبا بكر وجيوشه، ويدفعونهم إلى قدرهم وحينهم »

أما البيت الأول فلا إشكال فيه عنده، فلا حاجة به إلى التعليق عليه بشرح أو تفسير أو تحرير، وإن كنت أنا لم أفهم — ومعذرة لامرئ بعيد عن منهج المدرسة الحديثة — كيف يحدى أبو بكر بالرماح، فالحادي يحدو الإبل بغنائه، فتنساق خلفه وتطرد وراء حدائه، فكيف يمكن أن تكون الصورة حين يضع الرماح في موضع الحداء؟

يستطيع كل امرئ — ولو لم يكن من الأساتذة الكبار — أن يتكلف ويتمحل في الفهم والتخريج، ويلتمس المذاهب المختلفة في ذلك، وإن لم يمكن أن تستقيم مع ذوق أدبي سليم، أو منهج علمي سديد، ولكن هذه التمحلات لا غناء فيها، ولا جدوى لها، في أداء الصورة الشعرية الجديرة بذلك الشاعر. والأمر بعد أيسر من هذا العناء، فالدال في يحدى إنما هي ذال معجمة ذهب إعجامها، فتكون العبارة: « عشية يحذى بالرماح أبو بكر » بمعنى يطعن ويخزق جسده، كما هو الأصل في معنى حذا وأخواتها، كحذ وحذق وخذف وحذم.

هذا هو البيت الأول، ولا بأس على الأستاذ أن يتجاوزه، كما تجاوز — فيما يبدو — كثيراً غيره، إذ ليس بصدد التحقيق والتدقيق والتنقيب والتعقيب، وإذا كان أمر الدرس الأدبي قد صار — فيما يبدو أيضاً — أمر دراسة خاطفة عابرة، يعنيها أول ما يعنيها أن تخطف الأبصار — فيما يخيل إليها — ببعض الظواهر البراقة الباهرة، وأن تصل إلى أهدافها المرموقة ... بما تستطيع أن تصطنعه من حركات بارعة ماهرة.

ولكنا لا نغمط الأستاذ حقه، فبقدر ما تجاوز البيت الأول مسرعاً عجلا، وقف عند البيت الثاني مستأنيا محققا متأملا، كما رأينا في التعليق الذي نقلناه عنه منذ قليل. ففسر كلمة « يدهدى » كما لقنته المعاجم، وجزاه الله عن الباحثين خيراً! ولكن هذه المعاجم التي أسعفته في موقفه من هذا البيت، في هذه الكلمة، فقدمت إليه تفسيرها، فأسرع إليه يدونه كما هو، أميناً عليه، فرحاً به، جعلت تراوغه وتمايثه وتعكر به في الكلمة التالية، فخيلت إليه أنها تستطيع أن تمده فيها بما يثبت استاذيته، ويظهر ألمعيته، ويحقق دكتوريته، فتشبث بها، وتعلق بذراعها:

« ولكن يدهدى بالرجال فهينه »، فهينه؟ ما عسى أن يكون معنى هذه الكلمة؟ أجيبي أيتها المعاجم العزيزة كما أجبتني من قبل. ولكن المعاجم لم تجبه في الأولى إلا لتزلقه وتعبث به وتسخر منه في الثانية. فها هي ذي تأخذ بيده المتشبثة بها، وتجره معها، وتجول به بين هذا الموضع وذاك من مواضع الهاء والباء، ثم تقف به أخيراً — وقد بلغ منه الكلال والعناء حتى كاد يتساقط من الوهن والإعياء — عند كلمة « أهاب »، وتقول له، وهي تبسم بسمة ساخرة ماكرة: انظر ها هنا ضالتك!

أجل ! ها هنا أخيراً ضالته ، وما يكاد يصدق أنه واجدها ، ولكنه يسارع فيصطنع هيئة العلماء المتزمتين ، ويتخذ سمت الأساتذة المحققين ، ثم يتناول قلمه ، فيكتب : « أهابها من أهاب بالإبل والخيل إذا زجرها قائلا هاب هاب » ، ثم يتنفس الصعداء بعد هذه الرحلة المضنية الموفقة ! مستريحا إلى هذه الجملة البارعة الرائعة !

ويا لله لهذه الشرارة التي سطعت له من بين صفحات المعاجم ، فأضاءت له أرجاء ذلك البيت وجملته يتبين فيه سبيله على ذلك الوجه ! . وكذلك أحس الاستاذ من أعماق قلبه بالولاء البالغ لهذه المعاجم ، فهو مخلص لها ، منصرف إليها ، مغمض عينيه بين يديها ، متفان في الخضوع لما تشير به ، وإن لم يتبين وجهه ، غير عابئ بما يمكن أن يعارضها فيما يلقفه منها . وكذلك ضرب صفحا عن قوانين النحو والصرف ، وأعرض ، ونأى بجانبه عما تحتمه هذه القوانين ، إذا كان فيها ما يعترض سبيل الفهم الذي فهمه عن المعاجم ، أيا كان هذا الفهم ، أو يخالف ما حسب أن المعاجم تدل إليه به .

وإذن فلا عليه أن تكون هذه الكلمة « هبنه » معدولة عما ينبغي أن تكون عليه ، باعتبارها من « أهاب » ، ولا عليه أن تكون بدلا من « أهابوا به » مؤدية ما تؤديه هذه ، وأنف القوانين اللغوية الأولية المجمع عليها راغم ، ما دام لا بد من هذا فيما تأدى إليه . ومنذ الذي أجاز للغة أن تستعصي عليه ، أو تنفر من بين يديه ؟! وأي شيء هذه القوانين التي تجعل اللغة شيئاً جامداً متماسكا لا يساير الأفهام ، ولا يطاوع لأستاذيته ، أو لما تريده منه ، وما لا تستطيع أن تفهمه إلا به .

وهكذا يكون معنى البيت ، بعد هذا كله : « أن هؤلاء الرجال يزجرون أبا بكر وجيوشه ، ويدفعونهم إلى قدرهم وحينهم » ، ويا له من معنى !

من هم « هؤلاء الرجال » ؟ أهم رجال أبي بكر « يزجرون أبا بكر وجيوشه » أي يزجرون أنفسهم ؟ أم هم بنو ذبيان الثائرون على أبي بكر ، والذين يفديهم الشاعر برحله وناقته ، ثم يجعلهم يتدحرجون كما تتدحرج الحجارة ؟ أم ماذا ؟ ما أحوج هذا الشرح ، بعد كل ما سبق ، إلى ما يشرحه ، ويزيل ما يبدو صارخا من تهافته .

لا لا ! ما هكذا ينبغي أن يتناول الشعر . وماذا يبقى ل« بطن الشاعر » إن كان لا بد للشعر أن يكون ظاهراً واضحاً مكشوف المعنى مستقيم الوضع ؟ وأين إذن فضل الغموض وأثره الوجداني والهزة التي يبثها في حنايا النفس ؟ ولكنها المدرسة القديمة ، قاتلها الله ! لا تزال تلجأ إلى قواعد النحو والصرف ، ثم إلى قوانين المنطق والعرف ، دون أن تمنى بالمذهب الجديد في الشعر وأساليب قراءته وإدراكه .

وبعد ، فما أدري ما القديم والجديد في فهم الشعر وتذوقه ونقده ، ولكني أرى الأمر في هذا البيت أيسر من هذا التخبط والتسكع وتحدي قواعد النحو والصرف والعقل والمنطق والفن أيضاً . فليس هناك أكثر من أن نتعلم كيف نقرأ قراءة صحيحة دقيقة ، ولا نكون كهؤلاء الصحفيين والمصحفين الذين يتندرون بأخبارهم ، والذين يحكون عن أحدهم أنه نظر في المصحف قوله تعالى : « إذ يبايعونك تحت الشجرة » ، فقرأه : اذئباً يعونك تحت الشجرة . وأمضى ليله يكد نفسه في التماس التخريجات المختلفة من هنا وهنا تحقيقاً لأستاذيته !

فالأمر في هذا البيت شبيه بالأمر في البيت الأول . تصحيف يسير قريب ، ولكنه أدى إلى ذلك الخلط العجيب . فليست كلمة « فهبنه » المؤلفة من فاء عطف لا يدري ماذا تعطفه وماذا تعطف عليه ، وفعل لا يعرف من أي أصل هو ، ونون نسوة لا موضع لها ، وضمير غيبة لا مرجع له . ليست هذه الكلمة أو الجملة إلا تصحيفا قريباً لكلمة واحدة ، هي كلمة « مهينة » من الهوان وبذلك يكون البيت :

ولكن يدهدي بالرجال مهينة ... إلى قدر ، ما إن تقيم ولا تسرى

ويدهدي بصيغة المبني للفاعل لا المبني للمفعول ، والفاعل هو أبو بكر ، وبذلك يستقيم البيت ويطرد المعنى ، دون تحد للنحو أو معاندة للصرف أو معارضة للمنطق .

وأما بعد فهذا مثل من فهم الشعر القديم في كتاب « الهجاء والهجاءون » ، ولم أقرأ الكتاب جملة بعد ، ولكنني أحسست عند هذا الوضع الذي عرضته بالحسرة تلذع قلبي وتفزعني أشد الفزع ، أن يكون مثل هذا من سور الدرس الجامعي في هذه السنوات الأخيرة . والمشتكى إلى الله .

« أبو عبادة »

من رجال البلاغة في عصر الحروب الصليبية :

ابن الأثير

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

إخوة ثلاثة ، بلغوا حظاً كبيراً من المجد العلمي ، والمنزلة الرفيعة في الحياة ، وخلود الذكر بعد الموت . أما أكبرهم فمجد الدين المبارك (٥٤٤ — ٦٠٦ هـ) الذي كرس حياته لدراسة القرآن والحديث والنحو ، وله فيها مؤلفات ، لا يزال بعضها باقياً إلى اليوم . وأوسطهم عز الدين علي (٥٥٥ — ٦٣٠هـ) البرز في التاريخ ، والمصنف فيه عدة مصنفات ، أهمها الكامل الذي يعد مرجعاً من أشهر المراجع وأصغرهم ضياء الدين نصر الله ، الأديب الوزير ، وهو الذي نريد الحديث عنه . ومع اختلاف مناحيهم في الثقافة شغفوا جميعاً بالأدب وألفوا فيه . وبحتفظ دار الكتب برسائل المبارك الأدبية ، وبكتاب الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور لعز الدين . أما أصغرهم فكان أوفاهم حظاً من الأدب وبلوغ أسمى المناصب ، وإن قصرت به سياسته عن أن يحتفظ بما ناله من سلطان وجاه .

وولد نصر الله في يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣) بجزيرة ابن عمر ، وهي بلدة على دجلة في شمال الموصل وبالقرب منها . وإذا كان التاريخ لم يتحدث عن والده محمد بن محمد بن عبد الكريم فأغلب الظن أنه كان ميسور الحال يسراً هيأ لأولاده أن ينصرفوا من الثقافة وأن يتفرغوا لها .

وانتقل نصر الدين مع والده إلى الموصل حيث تثقف بها ، فحفظ كتاب الله وكثيراً من الأحاديث النبوية ، وأخذ بحظ صالح من النحو واللغة ، أما علم البيان فقد خصص له أكثر وقته ، ووقف عليه معظم جهوده ، قرأ فيه الكتب النظرية ، وأقبل على دواوين الشعراء يحفظ منها ما يشاء ، فدرس ما ألف في البلاغة ، وعرف ما انتهى إليه العلماء فيها ؛ ومن أهم ما قرأه منها :

كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، والتذكرة لابن حمدون البغدادي ، وكتاب أبي العلاء محمد بن غانم ، والأقصى القريب للتنوخي ، وكان معجباً بكتاب الموازنة بين الطائيين للآمدي ، وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، « غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا ، وأجدى محصولا » ، كما قال في المثل السائر . أما علمه بالشعر ، وحفظه له ، فقد قال عنه في كتابه : «ولما نصبت نفسي للخوض في علم البيان ، ورمت أن أكون معدوداً من علمائه ، علمت أن هذه الدرجة لا تنال إلا بنقل ما في الكتب إلى الصدور ، والاكتفاء بالمحفوظ عن المسطور ...

ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل ، وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس ، وأبي عبادة الوليد ، وأبي الطيب المتنبي ، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء » .

وأخذ ابن الأثير كذلك بحظ من الحساب ، والجبر ، والمقابلة ، والهندسة ولست أدري إن كان قد عرف لغة غير العربية ، مما هيأ له أن يحكم على الالتفات بأنه خاص باللغة العربية دون غيرها من اللغات[1] ؛ وأرجح أنه كان يعرف الفارسية والتركية ، كما يدل على ذلك حديثه عنهما في كتابه[2] ؛ وكان ابن الأثير متعصباً للغة العربية ، مؤمناً بأنها سيدة اللغات ، لما أوتيت من خصائص في تركيب كلماتها ، وما منحته من سمة ودقة جمال .

أما موقفه من الفلسفة فموقف المبغض الزدري ، يرى في دارسيها من أمثال ابن سينا والفارابي رجالا مغرورين أضلهم أرسطو وأفلاطون .

ولما استكمل ابن الأثير ثقافته ، مضى يريد الاتصال بصلاح الدين ، فأوصله القاضي الفاضل إليه في جمادى الآخرة سنة ٥٨٧

(١) المثل السائر .

(٢) ص ١٦٤ س ٢٠١

وقرر له صلاح الدين مرتباً ، ولكنه لم يلبث فى معية صلاح الدين بضعة أشهر ، حتى طلبه الملك الأفضل نور الدين من والده ، فخيره صلاح الدين بين الإقامة فى خدمته ، والانتقال إلى ولده ، فاختار ولده ، ومضى إليه فى شوال من تلك السنة . ولعل الباعث له على هذا الاختيار رغبته فى أن يكون بمكان يستطيع أن يظفر فيه بسامى المناصب وقوى النفوذ ، ولن يكون ذلك مع صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل . وحقق ابن الأثير أمنيته عند الملك الأفضل ، فقد استوزره ، ونعم بما كان يبغيه من السلطان . فلما مات صلاح الدين ، وصارت دمشق إلى الأفضل انفرد ضياء الدين بتدبير شئون الملك ، وتصريف أمور الرعية ، وأصبح مرجع الحل والعقد . ويجمع المؤرخون على فساد سياسته الخارجية والداخلة فقد توترت العلاقات بين الأفضل وملوك أسرته ، بسوء تدبير وزيره ، ونفرت الرعية من حكمه ، وكان له بلا ريب أكبر الأثر فى المصير المحزن الذى انتهى إليه مليكه بعزله عن الملك . وكثيراً ما أشار العادل على ابن أخيه أن يقيله فلم يكن يفعل ؛ وهجاه الشهاب فتيان الشاغورى فقال :

متى أرى وزيركم وماله من وزر
يقلعه الله فـذا أوان قلع الجزر (ى)

وبلغ من سخط الشعب أن الناس هموا بقتله عند ما نزل الأفضل عن عرش دمشق ، فأخرجه الحاجب مستخفياً فى صندوق قفل عليه ، ولكن ذلك كله لم ينزع ثقة مليكه فيه ، فصحبه أنى ذهب وحضر إلى مصر فى معيته ، عند ما جاء الأفضل وصياً على العرش لابن أخيه العزيز . وظل ابن الأثير فى خدمة الأفضل حتى أواخر سنة ٦٠٧ بعد نحو عشرين عاماً قضاها فى صحبته ، ثم تنقل بين حلب عند الظاهر غازى ، والموصل ، وإربل ، وسنجار ، ولكن لم يطب له المقام فى واحد منها ، فعاد إلى الموصل ، واتخذها دار إقامة ، وكتب الإنشاء لصاحبها : ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود ، وكان ذلك سنة ٦١٨ ، وبقى بالموصل زهاء عشرين عاماً أخرى . وفى رحلة له إلى بغداد ، يحمل رسالة من صاحب الموصل توفى بها فى إحدى الجماديين سنة ٦٣٧ (١٢٣٩ م) ، ودفن هناك .

كان أظهر صفات ابن الأثير إعجابه بنفسه ، وإيمانه بمواهبه ، تلمس ذلك فى كل خطوة تخطوها فى كتبه ، فتراه حيناً يعرض عليك نماذج من رسائله ، معجباً بها ، منوهاً بقدرها ، مبيناً ما استطاع أن يصل إليه فيها من معان جديدة ، وأفكار مبتكرة ، وحيناً يوازن بين كلامه وكلام غيره ، ليقنعك بجودة ما خطته راحته ؛ وفى نظريات البلاغة كثيراً ما تراه يقدم إليك آراء يعدها من مبتكراته ، أو يأخذ بيدك لتلمس ما زاده هو على آراء من سبقه .

وإنا نقر لابن الأثير أنه كان من مجتهدى هذا الفن ، وأن أكثر كتابه كان ناشئاً عن تجارب لصاحبه ، وعن تقليبه النظر فى ألوان الكلام ليستخلص منه وجوه حسنه ، وإن كنا نعرف أنه يغالى أحياناً فى ادعاء الاختراع لمعانى رسائله ؛ قال ابن خلكان « ومن رسائل ضياء الدين ما كتبه عن مخدومه إلى الديوان العزيز من جملة رسالة وهى : ودولته هى الضاحكة وإن كان نسبها إلى العباس ، فهى خير دولة أخرجت للزمن كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس ، ولم يجعل شعارها من لون الشباب إلا تفاؤلا بأنها لا تهرم ، وأنها لا تزال محبوبة من أبكار السعادة بالحب الذى لا يبلى ، والوصل الذى لا يصوم . وهذا معنى اخترعه الخادم للدولة وشعارها وهو مما لا تخطه الأقلام فى صحفها ، ولا أجالته الخواطر فى أفكارها .

أقول : لعمرى ، ما أنصف ضياء الدين فى دعواه الاختراع لهذا المعنى ، وقد سبقه إليه ابن التعاويذى فى قصيدته السينية التى مدح بها الإمام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد ، أول يوم جلس فى دست الخلافة ومنها :

ورأى الغانيات شيبى فأعرضن ، وقلن : السواد خير لباس
كيف لا يفضل السواد ، وقد أضحى شعاراً على بنى العباس

ولا شك أن ضياء الدين زاد على هذا المعنى ، لكن ابن التعاويذى هو الذى فتح الباب ، وأوضح السبيل ، فسهل على ضياء الدين سلوكه .

وتنوعت أغراض الرسائل التى كتبها ضياء الدين بين سلطانية وأخوية ، وهى رسائل دسمة ، فيها كثير من معانى ما حفظه من قرآن وحديث وشعر ، وكثير من الأمثال والإشارات التاريخية ، فقد كان ابن الأثير مثقفاً ثقافة أدبية قوية ، والتزم فى

رسائله السجع ؛ لأنه كان يراه أعلى درجات الكلام ، ولا يرى وجهاً لمن يذمه سوى عجزه عن أن يأتى به ؛ وإلا فلو كان مذموماً ما ورد فى القرآن الكريم ، ويعلل وجهة نظره فى استحسان السجع بأنه اعتدال فى مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء ، والنفس تميل إليه بالطبع .

وجمعت رسائله فى ديوان بلغ عدة مجلدات ، يبلغ المختار منها مجلداً واحداً ، ولكنى لم أعثر على هذا الديوان ، بل رأيت نماذج له كثيرة فى كتابيه المثل السائر ، والوشى المرقوم .

وبلغت ثقته بنفسه فى إنشاء الرسائل ، والعلم بقوانين البلاغة حداً كبيراً ؛ فكان يعارض شيخ الإنشاء فى عصره : القاضى الفاضل ؛ يكتب فى أغراض كتبه ، وحيناً يعرض له من المعانى ما يراه قد نقص عبد الرحيم ؛ فمن ذلك أنه قد عرض عليه كتاب له ، أرسله إلى بغداد على لسان صلاح الدين سنة ٥٧١ ، وضمنه ما أبلاه فى خدمة الدولة : من فتح مصر ، ومحو الدولة العلوية ، وإقامة الدعوة العباسية ، وشرح فيها ما قاساه فى الفتح من الأهوال ، فلما تأمله ضياء الدين ، وجده كتاباً حسناً ، قد وفى فيه الموضوع حقه ، إلا أنه أخل بشىء واحد ، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات ، وكان الفتح فى المرة الثالثة ، وهذا له نظير فى فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة فإنه قصدها عام الحديبية ، ثم سار إليها فى عمرة القضاء ، ثم سار إليها عام الفتح ففتحها ، فلما عارض ضياء الدين رسالة القاضى الفاضل ، أشار فيها أشار إلى الشبه بين فتح مصر وفتح مكة ، وقال بعد أن أورد هذه الرسالة التى أنشأها : وعجبت من عبد الرحيم بن على البيسانى مع تقدمه فى فن الكتابة ، كيف فاته أن يأتى به فى الكتاب الذى كتبه. وانتقد القاضى الفاضل مرة أخرى وإن لم يصرح باسمه عندما رآه يشبه حصناً من حصون الجبال بأنه أنملة ، قال : فأى مقدار للأنملة بالنسبة إلى تشبيه حصن على رأس جبل ؟ !

وكان يوازن بين رسائله ورسائل الصابىء الكاتب ليرى مقدار تفوقه عليه ؛ وهو يرى فيه أن عقله زائد على فصاحته وبلاغته ، ذلك أنه يورد فى كلامه وصايا وشروطا ، واستدراكات وأوامر ، ما بين أصل وفرع ، وكل وجزء ، وقليل وكثير : إلا أنه عبر عنها بعبارة فى بعضها ما فيه من الضعف .

أما موقفه من علماء البلاغة فموقف الناقد الحاسب لا القابل المسلم ، يورد أفكارهم ، فيقبل منها ، ويرفض ، مناقشاً ، مدعماً رأيه بالحجة ، وإن جانبه الصواب أحياناً . وما كان يرى أن يدخل علماء النحو فى الأمور البلاغية حتى لا يصدروا أحكاماً لم تؤهلهم لها دراستهم ؛ وهو لذلك ينتقد أبا الفتح بن جنى عند ما شرح قول أبى الطيب :

كل جريح ترجى سلامته إلا جريحاً دهته عيناها
تبل خدى كلما ابتسمت من مطر برقه ثناياها

فظن ابن جنى أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبتسم فيخرج الريق من فمها ، ويقع على وجهه فشبهه بالمطر ؛ قال ابن الأثير : وما كنت أظن أن أحداً من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره ، وإذا كان هذا قول إمام من أئمة العربية تشد إليه الرحال ، فما يقال فى غيره ؟!

وأما رأيه فى الشعراء فإنه يرى الفرزدق وجريرا والأخطل أشعر العرب أولا وآخرا . « ومن وقف على الأشعار ، ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت إليه ، ولا ينبغى أن يوقف مع شعر امرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى فإن كلا من أولئك أجاد فى معنى اختص به حتى قيل فى وصفهم : امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا شرب . وأما الفرزدق وجرير والأخطل فإنهم أجادوا فى كل ما أتوا به من المعانى المختلفة . وأشعر منهم عندى الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام ، وأبو عبادة البحترى ، وأبو الطيب المتنبى ؛ فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان فى طبقة الشعراء ، أما أبو تمام وأبو الطيب فربا المعانى ، وأما أبو عبادة فرب الألفاظ فى ديباجتها وسبكها » . وهو فى هذا الفصل من كتابه يورد آراء بعض الناقدين فى الشعراء ويناقشها كعادته .

ومع تعصب ابن الأثير للعربية ، يقر بفضل العجم فيما أوتوه من القدرة على الإطالة المفرطة فى الشعر ، « فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف بشاه نامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر ، يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو

قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر » .

وألف ابن الأثير كتباً بعضها لم أعثر عليه .

١ — كتابه فى السرقات الشعرية الذى حدثنا عنه فى المثل السائر .

٢ — كتاب كنز البلاغة الذى أشار إليه السبكى فى شرحه على التلخيص .

٣ — كتاب مختارات اختار فيه من شعر أبى تمام والبحترى وديك الجن والمتنبى ، قال عنه ابن خلكان : « وهو فى مجلد كبير ، وحفظه مفيد » ، وقال أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل : نقلت من خطه فى آخر هذا الكتاب المختار ما مثاله :

تمتع به علقاً نفيساً فإنه اختيار بصير بالأمور حكيم
أطاعته أنواع البلاغة فاهتدى إلى الشعر من نهج إليه قويم

٤ — كتاب المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء .

٥ — الكتاب المرصع فى الأدبيات ، وقد طبع فى القسطنطينية سنة ١٣٠٤ .

٦ — أما أهم كتاب له فهو المثل السائر الذى حاول أن يضبط فيه قواعد البلاغة ، ونهج فى تأليفه نهجاً أدبياً عملياً ، لا نظرياً جافا ، وملأه بالأمثلة وبيان مواضع الجمال ، ونقد مواطن القبح ، وعقد الموازنات ، وهو يعد من أسس كتب البلاغة ، وكان لهذا الكتاب وقع كبير فى الدوائر البلاغية فعندما وصل هذا الكتاب إلى بغداد انتقده المدائنى بكتاب سماه الفلك الدائر على المثل السائر ، وانتصر أبو القاسم السنجارى المتوفى سنة ٦٥٠ للمثل السائر ، فألف كتاباً سماه نشر المثل السائر وطى الفلك الدائر ؛ وتستطيع أن ترجع إلى كشف الظنون لترى ما أثاره هذا الكتاب من دراسات .

٧ — وكتابه الوشى المرقوم فى حل المنظوم منهج تطبيق لفكرته التى يدعو إليها ؛ ذلك أنه يرى الكاتب محتاجاً لحفظ القرآن الكريم والأخبار النبوية والأشعار الكثيرة بقدر المستطاع . وفى هذا الكتاب يبين بطريقة عملية كيف نستفيدهما نقرأ ونحفظ فى ترقية أسلوبنا والثروة فى معانينا ، ولو أن اللفتات التى نبه عليها ابن الأثير ، فى المعانى والعناية بها ، وكيف نستنبطها ، ونبتكرها سارت فى طريقها ، ولم تمتها الدراسات النظرية المحضة لكان لبلاغتنا اليوم شأن جد رفيع .

وله بدار الكتب :

٨ — كتاب مؤنس الوحدة ، جمع فيه أشعاراً وأخباراً فى المدائح والأوصاف والتشبيهات .

٩ — كتاب المفتاح المنشا لحديقة الإنشا ، بدأه مبيناً فضل صناعة الإنشاء وأنها أشرف صناعات الممالك ، « فهى اليد اليمنى التى بها الأخذ والعطاء ، والمنع والإمضاء ، والقبض والبسط » ، فلا جرم كان من الواجب أن يختار لهذه الصناعة رجل تتوافر فيه صفات خاصة بين عقلية وخلقية وثقافية . ورتب الكتاب على بابين : أولهما فى مراتب الكتب والمخاطبات ، والثانى فى الأدعية والانتهاءات ، فذكر ما تبدأ به الرسائل ، والألقاب التى يخاطب بها المرسل إليهم ، والدعاء لهم . وذكر فصلا فى الأدعية لأرباب غير الملة الإسلامية ؛ وأورد الصيغ التى يقدمها الكاتب بين يدى مراده . كما شرح فيه كثيراً من ألوان المحسنات البديعية .

ولابن الأثير شعر قليل ، لا يضارع قوة نثره ، ولعل من أجوده قوله :

وساءلتمونى عندكم كيف حالتى وذلك أمر بين ليس يشكل .
فمن قلبه ، لا تسألوا فهو عندكم وأما عن الجسم المخلف فاسألوا .

أحمد أحمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

المراجع :
(١) وفيات الأعيان حـ ٢ ص ١٥٨ و ٤٠٨ .
(٢) بغية الوعاة ص ٤٠٤ (٣) شذرات الذهب حـ ٥ ص ١٨٧
(٤) كتبه . (٥) صبح الأعشى حـ ٢ ص ٤٤٦ .
(٦) الروضتين حـ ١ ص ١٩٢ و حـ ٢ ص ٢٢٨ .
(٧) السلوك حـ ١ ص ١١٥ و ١١٦ و ١١٨ و ١٢٣ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٥١ . (٨) نثر الجمان — القطعة الثانية ص ١١٦
(٩) النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ١٢٠ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٥ و ١٦٢ و ٣١٨ (١٠) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول — الجزء الثانى ص ٨٢ (١١) معجم البلدان حـ ٣ ص ١٠٢
(١٢) شرح السبكى على التلخيص ص ٨٢ حـ ١ شروح التلخيص
(١٣) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء حـ ٢ ص ١٨٩
(١٤) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ٧٣ و ٣٤٤ و ٣٤٥
(١٥) كشف الظنون حـ ٢ نهر ١٥٨٦ و ١٩٤٨
(١٦) معجم المطبوعات العربية لسركيس حـ ١ نهر ٣٥

حرارة الصيف
بين العلم والأدب
للأستاذ ضياء الدخيلي

يعاني اليوم قراء (الرسالة) في أنحاء الشرق الأدنى سطوة عامل فيزيائي يقسو على سكان بعض البلاد العربية ويخف بطشه بآخرين – ذلك هو وبل الأمواج الحرارية التي تصلي شواظها في هذه الفترة من الزمن فتنصب على رؤوسنا من هذا الكوكب الملتهب الذي سجر لظاه رب السموات . فلنتحدث عن حرارة الصيف وما قال عنها العلم الحديث مخصصين عنايتنا بأثرها في أجسامنا ، ثم فلنعرض شكوى الأدباء وعويل الشعراء من وهج بلاد العرب وكيف كانوا يتقون عنفها في المملكة العربية قبل أن ينعم أديسون وإخوانه – على البشرية بالكهرباء ومراوحه السحرية ، ومولدات الثلج في لحظات تقلب خطو الأماني عبر الدياجي إلى تخوم الوجود .

لعل من مظاهر الرفق ومجالي العطف على القارئ الكريم أن لا تقحمه أبحاث علماء الفيزياء في الحرارة فالمثل يقول : (لا تكن أنت والزمان عليها) . فليس من لطف الإنسانية أن نخوض به غمار تلك الأبحاث المتعبة التي يشكو اليوم من ويلاتها الطلبة وهم على أبواب الامتحانات فلننفض عن حديث ما تسببه الحرارة من تمدد الغازات والسوائل والأجسام الصلبة ، ولنضرب صفحاً عن معاملي التمدد الحجمي والطولي فلا نريد أن نبني جسوراً فولاذية في رأس القارئ الكريم وهو يرزح تحت سطوة الحر في بلاد العرب ، ولنترك للطلبة استظهار الحرارة النوعية وبحث الانصهار والجمود تلك الأبحاث التي اعتادوا أن يجمدوها في حافظتهم لساعة الامتحان الحرجة حتى إذا انغمروا في لهو العطلة الصيفية انصهرت معلوماتهم ، فكأنما كانت تماثيل من الثلج أذابتها حرارة الصيف وتلاشى قانون (بويل) كما غاب نفس بويل قبله في عالم العدم وتصاعدت المعلومات متطايرة بعد أن تكاثفت لخزنها لأوقات الامتحان ولنصم آذاننا من تعريف الفيزيائيين للحرارة بأنها (عبارة عن طاقة حركية للجزيئات) ولكن لنصغ إلى ذلك الأديب يعرف لنا الحرارة تعريفاً شعرياً . وقديماً عد اليونان في علم المنطق من أساليب البرهنة – القياس الشعري وضربوا له المثل بقولهم : (الخمر مرة مهوعة) فالحق أن التعريف الشعري والبرهان الشعري أقوى تأثيراً في نفوس الناس من الأبحاث الدقيقة القائمة على الإحصاءات ، فأكثر الذين اندفعوا إلى الهيام بالخمر جذبتهم أخيلة الشعراء الذين وصفوها بأنها ياقوتة ذائبة تطير بالنفوس بأجنحة الخيال في عالم الأفراح . ولو قالوا إنها سم يشل مراكز التفكير العليا لكانوا أقرب إلى الحقيقة . ولكنهم يبعدون عن تفكير الجماهير العمياء التي لا يقودها غير عاطفتها . وإذن فلنترك الأديب يحدثنا عن الصيف وحره فيقول (كما أورده النويري في نهاية الأرب في فنون الأدب) .

(أوقدت الظهيرة نارها ، وأذكت أوارها . فأذابت دماغ الضب ، وألهبت قلب الصب . هاجرة كأنها من قلوب العشاق ، إذا اشتعلت بنيران الفراق ، حر تهرب له الحرباء من الشمس ، وتستجير بعتراكب الرمس ، لا يطيب معه عيش ، ولا ينفع معه ثلج ولا خيش ، فهو كقلب المهجور ، أو كالتنور المسجور) هذا مما قيل في حرارة الصيف نثراً ، وأما الشعر فحسبك منه ما يلي : قال ذو الرمة :

وهاجرة حرها واقد ... نصبت لحاجبها حاجبي
تلوذ من الشمس أطلاؤها ... لياذ الغريم من الطالب
وتسجد للشمس حرباؤها ... كما يسجد القس للراهب

(في المنجد : حاجب الشمس ناحية منها وأول ما يبدو منها مستعار من حاجب العين ، وحواجب الشمس أشعتها) وقال مسكين الدارمي :

وهاجرة ظلت كأن ظباءها ... إذا ما اتقتها بالقرون سجود
تلوذ بشؤبوب من الشمس فوقها ... كما لاذ من حر السنان طريد

وقال ابن الفقيسي :

في زمان يشوى الوجوه بحر ... ويذيب الجسوم لو كن صخرا
لا تطير النسور فيه إذا ما ... وقفت شمسه وقارب ظهرا
ويود الغصن النضير به لو ... أنه من لحائه يتعرى

وقال أيضاً :

يا ليلة بت بها ساهداً ... من شدة الحر وفرط الأوار
كأنني في جنحها محرم ... لو أن للمودة منى استتار

وكيف لا أحرم في ليلة   سماؤها بالشهب ترمى الجمار

وقال آخر :

ويوم سموم خلت أن نسيمه   ذوات سموم للقلوب لواذع
ظللت به أشكو مكابدة الهوى   فكوزى ملآن ومائى فارغ

وقال محمد بن أبي الثياب شاعر اليتيمة :

وهاجرة تشوى الوجوه كأنها   إذا لفحت خدى نار توهج
وماء كلون الزيت ملح كأنه   بوجدى يغلى أو بهجرك يمزج

وقال الثعالبي :

رب يوم هواؤه يتلظى   فيه كل فؤاد صب متيم
قلت إذ مسك حره حر وجهي   « ربنا اصرف عنا عذاب جهنم »

ولقد تقدم من ذلك الأديب أن وصف حر الصيف بأنه : (لا يطيب معه عيش ولا ينفع معه ثلج ولا خيش) . فما هو الخيش ؟ يحدثنا الطبرى وياقوت في معجم الأدباء إنه كانت عادة الأكاسرة أن يطين سقف بيت في كل يوم صائف فتكون قيلولة الملك فيه وكان يؤتى بأطباق الخلاف (وهو صنف من الصفصاف طوالا فتوضع حول البيت ويؤتى بقطع الثلج الكبار فتوضع مابين أضعافها . وكانت هذه عادة الأمويين أيضاً ؛ ولكن في عهد المنصور العباسي اتخذت طريقة أخرى للتبريد فكانوا ينصبون الخيش الغليظ ولا يزالون يبلونه بالماء فيبرد الجو (في المنجد : الخيش نسيج خشن من الكتان)

وكان أهل الترف في ذلك العصر يستعيضون عن دخول السراديب بنصب قبة الخيش أو بيت الخيش .

وفي لطائف المعارف للثعالبي (وكان الخيش ينصب على قبة ثم اتخذت بعدها الشرائح فاتخذها الناس) . وحكى المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم ، في معرفة الأقاليم) : أنه رأى في دار عضد الدولة البويهي بشيراز بيوت الخيش يبللها الماء على الدوام بواسطة قنوات حولها من فوق .

قال الأستاذ آدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) بظاهر أن طريقة استعمال الخيش وسيلة لتبريد الهواء كانت شائعة في بغداد جداً ؛ إذ يحكى عن أحد القواد في القرن الرابع الهجري أنه لم ير فرقة من الجند أتت من بغداد أهلا للقيام بغزوة هامة لأنهم في رأيه قد ألفوا بيوت دجلة وشرب النبيذ والثلج وبيوت الخيش المبلل وسماع القيان كما نقل ذلك ابن مسكويه .

وقال الغزولي في مطالع البدور : وكان يستعمل في البيوت صيفاً مروحة تشبه شراع السفينة تعلق في سقف البيت ويشد بها حبل يديرها وهي تبل بالماء وترش بماء الورد ؛ فإذا أراد الرجل أن ينام وقت القائلة جذبها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجيء فيهب منها نسيم بارد طيب .

وجاء في جمهرة الإسلام للشيرازي وكتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي (أنه كانت حراقات دجلة التي يستعملها رجال الدولة في غدوهم ورواحهم يمد فيها الثلج ويعلق عليها الخيش المبلل بالماء وكانت ترخى على الخيش ستور الكرابيس) .

وقد رأيت في كتاب أساس البلاغة للزمخشري ما نقله عنه في تاج العروس من أن (الحراقة هي سفينة خفيفة المر) . أما الكرباس فهو كما في المنجد : الثوب الخشن جمعه كرابيس والكلمة من الدخيل .

وكان أهل بغداد ينامون في ليل الصيف على سطوح البيوت يدل على هذا ما حكاه معظم المؤرخين كابن الأثير في الكامل وابن الجوزي في المنتظم وغيرهما — من ظهور حيوان يسمى الزبزب في عام ٣٩٤ هـ كان بحسب زعم الناس يأكل الأطفال بالليل من على السطوح وما كان حيواناً بل وهماً نشأ من وجود اللصوص . ويقول ابن الجوزي في المنتظم إنه في تموز من سنة ٣٠٨هـ برد الجو حتى نزل الناس من السطوح وتدثروا باللحف ؛ هذا في مدينة بغداد أما في آمل وهي كما في المعجم لياقوت أكبر مدينة بطبرستان في السهل لأن طبرستان سهل وجبل — لقد كانت السطوح في آمل مسنمة لكثرة الأمطار صيفاً وشتاء كما نقل ذلك الاصطخري في مسالك الممالك .

أما في اليمن فيحدثنا أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب — فكان الغالب على صنعاء البرد حتى كان إذا اشتد بها الصيف ودخل الرجل ليقيل على فراشه لم يكن له بد من أن يتدثر لأن البيوت باردة بسبب القصة (الجصة) التي تشيع بها (تطين) بواطن البيوت لأن الجص في صنعاء يخلط بمادة غروية هناك فيظهر للبناء بعد جفاف الجص بريق جوهري كبريق المصقول من الجواهر ؛ وتشبه الجدران في بياضها الفضة. وربما دخل الرجل في صنعاء في المخدع على فراشه وأطبق عليه الباب وأسبل الستر والسجف فلا يتغير ضياء البيت لما في الجدران والسقف من الرخام ؛ بل إنما كان في السقف رخامة صافية

نظر عوم الطائر بظله عليها إذا حاذاها وتؤدى الرخامة لمان الشمس إلى القصة فتقبلها بجوهرها وبريقها .

ولكن فى سامراء من العراق كانوا يستخدمون السراديب تحت الأرض . قال آدم متز : لقد كشفت لنا حفائر سامراء عن طريقة بناء الدور عند أهل العراق فى القرن الثالث الهجرى حيث كانت تشتمل على سراديب للسكنى مهيأة بوسائل التهوية . ولا نجد فيما بين أيدينا من أخبار القرن الرابع فى العراق ما يدل على استعمال السراديب للسكنى فى فصل الصيف ولا تشير إلى ذلك أية حكاية من الحكايات الكثيرة التى ترجع إلى ذلك العصر

وفى كتاب العيون أنه كان السرداب فى ذلك العصر عبارة عن مكان تحت الأرض فيحكى مثلا أن الخليفة المقتدر أمر بحفر سرداب لمؤنس وأن مؤنساً وقع فيه ومات ، هذا ما نقله ولكن الذى فى كتب التاريخ أن مؤنساً هو الذى قتل المقتدر على يد أصحابه .

ويقول عريب وكان عند رجل فى داوه سرداب تحت الأرض عليه باب من حديد . بل يحكى عن مروج الذهب أنه فى عهد المنصور سير جماعة من أبناء على إلى الكوفة وحبسوا فى سرداب تحت الأرض لا يفرقون فيه بين ضياء النهار وسواد الليل . وفى مقاتل الطالبيين عن رجل كان مسجوناً مع يحيى العلوى فى عهد الرشيد ، وكان الرشيد يعذبه تعذيباً مؤلماً حتى مات من وقع السياط ، وكان اسم السجن المطبق وهو تحت الأرض وكان من شدة ظلامة لا يعرفون أوقات الصلاة فيه .

وإذن فالسراديب لم تكن فى صدر الدولة الإسلامية متعارفاً استعمالها لاتقاء الحر فى بغداد ، وإن كانت موجودة فى السجون التى يحبس بها العلويون الذين كان بنو العباس يخشون من ثوراتهم قال آدم متز .

ويرجع أصل عادة اتقاء الحر الشديد بالنزول فى السراديب إلى بلاد آسيا الوسطى حيث يحكى لنا الرحالة [وانج بن تى فى عام ٩٨١ م أن بعض أهل تلك البلاد يسكنون فى الصيف غرفاً تحت الأرض . أما فى بلاد الإسلام لذلك العهد فقد كانت مدينة زرنج أكبر مدن سجستان ومدنية ارجان بفارس أول مدينتين اتخذ أهلها فى الصيف سراديب تحت الأض يجرى فيها الماء كما نقل ابن حوقل فى كتابه صورة الأرض .

قال ياقوت فى معجم البلدان إن أرض سجستان كلها رملة سبخة والرياح فيها لا تسكن أبداً ولا تزال شديدة تدير رحيهم وطحنهم كله على تلك الرحى .

وفى القرن الخامس الهجرى يذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو أن من خصائص مدينة ارجان أن فيها من الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها وإن الماء يجرى تحت الأرض وفى السراديب وفى أشهر الصيف يستروح الناس فيها .

ويذكر المقريزى بعد ذلك بقرون (إن من محاسن مصر أن أهلها لا يحتاجون فى حر الصيف إلى الدخول فى جوف الأرض كما يعانيه أهل بغداد) . وأما اليوم فقد ضربت مدينة النجف الأشرف فى العراق الرقم القياسى فى استعمال السراديب ، وذلك لأنها واقعة على أرض مرتفعة فى الصحراء قد جذب المسلمين إليها قبر الإمام على (ع) فازدحم حوله علماء الإسلام فقامت حركة علمية جبارة وقصدها طلاب العلم فى أطراف العالم الإسلامى ، ففيها الطلبة من أنحاء إيران والعراق ومن لبنان وسورية والحجاز والصين والهند وأفغانستان وسمرقند وبخارى وغير ذلك فهى مقر (الأمم الإسلامية المتحدة) وإن هؤلاء المهاجرين يعانون من قسوة الصيف ولذع هاجرة الصحراء — أعنف التعذيب لو لم يتقن النجفيون فى نحت السراديب تحت الأرض فيحفرون فى أعماق الأرض حفراً عميقاً جداً حتى يصلوا إلى طبقة صخرية يسمونها (السن) فيضربونها بالمعاول ضرباً قوياً عنيفاً حتى يثقبوا تحتها عمراً فينتهون إلى طبقة رملية سريعة الإزالة وإن كان فى تضاعيفها صخور كبيرة فإذا حفروا تحتها فسحة تسع أهل البيت برفاهية أووا إليها فى هاجرة الصيف فإذا البرد الشديد الذى لا يطاق إلا بالتدثر بالملحف على حين أن الحرارة الملتهبة على سطح الأرض تشوى الوجوه ؛ وبذلك يستغنى النجفيون عن الثلاجات ولاسيما إذا وصلوا تلك السراديب بالآبار حيث تجهزهم بالهواء النقى من أعلى . ولعل هذه العادة اقتبست من أواسط آسيا حيث يكثر فى النجف المهاجرون فى تلك الأنحاء الإسلامية . وتبلغ السراديب أرقى درجات الاتقان فى مدارس الفقهاء ولاسيما مدرسة السيد كاظم اليزدى التى من محاسن مرافقها (الزنبور) وهو طريق للهواء يهبط من أعلاه ثم يمر تحت أرض السرداب فيكوّن تحتها تجويفاً يقلل الرطوبة فيه . ثم إن ذلك الطريق ينتهى بثقب صغير فى وسط أرض السرداب فيخرج منه الهواء اللطيف البارد . وهكذا يحتمى الطلبة فتطيب لهم دراسة الفلسفة والمنطق والرياضيات وعلوم الأدب والشريعة وقد أنتجوا الكتب الكثيرة فيها .

(البقية فى العدد القادم) ضياء الدخيلى

رثـــاء الفنـــان (*)

للأستاذ الشاعر علي محمود طه

أسائلكم : ويح من يجيب !   ما خطبكم ؟ لم يمت نجيب
ما مات من أضحك المآسي   من قدر صنعه عجيب
وصير الدمع في المآقي   على ابتساماته يذوب
وجمل العيش للحزانى   فكل حال به تطيب
وأنصف الدهر من حظوظ   تخطيء في الناس أو تصيب
ومثل الزيف من حياة   مرقع ثوبها القشيب
كادت لتنبيه الليالي   تبكي ، وتستعبر الخطوب
وكاد منه الزمان يغضى   خزياً ، وتستغفر الذنوب
معلم ماله ضريب   معهده المسرح الحبيب
فتى كطير الربيع روحاً   موهوبة نفسه وهوب
البارع اللفظ في بيان   يحار في صوغه الأديب
كأنه ما تنل لعيني   وعهده بالنوى قريب
حلو الأشارات في سمات   له بتصويرها ضروب
وصوته ملء كل سمع   تهفو لإيقاعه القلوب
أستاذ جيل إلى نداه   عواطف الجيل تستجيب
يعلم الشعب أو يسلي   من شفه الهم واللغوب
في قصة مرة حوتها   ملهاته الحلوة الطروب
أو ملحة عذبة جلاها   أسلوبه الساخر اللعوب
يلقى بها ضاحكاً ويمشي   وقلبه سائم كئيب
حياتنا مثلما رآها   صورها ناقد لبيب
مصرية الذوق لم يشبها   تصنع لفظه مشوب
ولم تلفق ولم تنمق   بها الأباطيل والعيوب
حقائق لم يوار منها   مجامل هازل هيوب
مدرسة مابها كتاب   ومنبر ماله خطيب
لا سن للدارسين فيها   طلابها فتية وشيب
ويستوي جاهل لديها   وعالم فاهم أريب
ألكل فيها لهم متاع   وفن ومن علمه نصيب

يا لمفة الفن حين أودى   وما اعترى نجمه شحوب
ولا زوى أفقه ظلام   له على موجه وثوب
في لحظة لم يجل بذهن   فضاؤها الفاجع الرهيب
حيث ينادي وحيث يرجى   مشيبه الراغم الخصيب

قم يا نجيب انفض المنايا   واسمع تجد أمة تجيب
صحت على موكب هلوع   يخنقه الحزن والنحيب
مصر التي تدرتك حياً   يا أيها النابغ الأريب
بمثل ما شيعتك يوم الوداع   لم تسمع الشعوب
وأنت بالعهد من هواها   ربيبها وابنها النجيب
لم ينس « فاروق » من إليها   انتمى ، ومن باسمها يهيب
ومن رعاها ، ومن حماها   هواه أو صدره الرحيب
ملك تلوذ الفنون منه   بسدة مصنها القلوب
في مفرق الفن في يديه   اؤاؤة حرة خلوب
تود منها الشموس قبساً   وتصمد الشهب أو تصوب
أشمة المجد من سناها   عن ملكه الضخم لا تغيب !

علي محمود طه

(*) ألقيت في حفلة التأبين التي أقامتها نقابة الصحفيين أول أمس للمرحوم الأستاذ نجيب الريحاني

32.53

مالتـــــــــوس
ومشاكل السكان فى العالم

للأستـــاذ فؤاد طرزى

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

لا يتوقع إلا قلائل من الباحثين إمكان الوصول إلى قانون عام فى موضوع نمو السكان ينطبق على الشعوب وفى كل الأزمان؛ ولهذا تحتل اليوم مشكلة التوازن القسم الأكبر من أعمال الباحثين فى مسائل السكان وفى مسائل المواد الغذائية على السواء. ولكن فروض مالتوس كانت بمثابة فتيلة ظلت متقدة طوال عصور التاريخ من حين نشر هذا العالم نظريته. وإذا كان هناك من يميل إلى إنكار هذه الفروض فيجب عليه تيمناً لذلك أن يطلع على الملاحظة الدقيقة التى أثبتها لينارد هوبوس والتى قال فيها « إن نظرية مالتوس ذاتها كانت من جملة الأسباب فى هزيمة تنبؤاتها فقد كان لخواها أن السكان يتزايدون بسرعة فائقة فى الوقت الذى تجرى فيه عمليات غير مباشرة تعمل للحد من هذه الزيادة ».

ويظن علماء الإحصاء اليوم بأن نظرية مالتوس تكون أكثر نفعاً متى اعتبرت على ضوء صلتها بعصور الدورة الإحصائية العالمية وهى العصور التى تمثل مراحل مختلفة مرت بها شعوب ومناطق مختلفة. وقد بذل فرانك نوتستين ومساعدوه فى جامعة برنستون جهوداً كبيرة لاكتشاف هذه الدورة وترتيب هذه المراحل كما يلى: المرحلة الاحتمالية، والمرحلة الانتقالية، وتمثلت فى التجربة الأوروبية الغربية التى شهد مالتوس قسما منها، ومرحلة الهبوط الأولى، (وهذه المرحلة لم ترد فى نظرية مالتوس).

يخمن الأستاذ نوتستين بأن ما يقارب نصف سكان العالم هم اليوم فى مرحلة النمو الاحتمالى بالقياس إلى العصور الإقطاعية. وإن الشرق الأدنى وجميع آسيا (باستثناء اليابان والاتحاد السوفياتى) والبلدان المتأخرة فى جنوب ووسط أميركا لا تزال، مع بعض الاختلافات، فى هذه المرحلة التى سبقت عهد مالتوس. فهناك ولادات كثيرة ولكن عدد السكان لا يزال ثابتاً بسبب ارتفاع معدل الوفيات. وهذه هى البلدان التى يمكن إنقاذ النفوس فيها بالوسائل الطبية والصحية ولا يمكن فقدانها إلا بسبب الفقر والمجاعة وفق طريقة مالتوس الأصلية. ومع أنه من الصعب أن نشرح بأى قدر من الدقة الظروف التى تحيط بشعب ما وتؤدى إلى انعدام الطرق الإحصائية الحديثة فيه، إلا أنه من المحتمل اتخاذ الصين كمثل لتقلبات إحصائيات السكان المتصلة بهذه المرحلة. فنحن نعرف أن الوسائل الطبية والصحية لم تنتشر إلى الآن بين الجماهير الصينية، ولذلك فإن عدداً من العلماء يشكون فى إمكان حصول أية زيادة ثابتة بين الشعب الصينى الضخم. وعلى كل فى حالة حدوث أى تغير فى النسبة المتعادلة بين معدل الولادات ومعدل الوفيات فإن للصين شعباً قادراً على إحداث زيادة كبيرة حالما تضبط معدلات الوفيات.

وقد ظهر فى الماضى أن نمو الشعب الصينى قد جرب الأسلوب الدورى الذى جربه العالم الغربى. فحين تسلمت أول عائلة جديدة الحكم شاع السلام واستتب النظام ورجح معدل الولادات على معدل الوفيات بين طبقات الممالك المتزايدة وبين الجماعات المثقفة. ولكن الصين رغم بلوغها مرحلة عالية من مراحل المدنية لم تعمل على تحسين مواردها الآلية كما فعلت أوروبا؛ ولذلك بلغ فيها عدد السكان حد الإشباع. ثم جاءت المجاعات والثورات والحروب تخفف من ضغط السكان. وقد حدثت دورة مالتوس هذه أربع مرات منذ القرن الثانى بعد المسيح. واليوم تعيش المرحلة الاحتمالية فى الصين فى حالة سكون فلا يحس خلالها بضغط السكان ولكن من غير أن تغذى الزيادة فيها كما يحدث فى اليابان.

وأما فى الهند فإن تنظيم الأساليب الصحية وطرق مكافحة الأمراض الوافدة وتحسين طرق المواصلات واتساع سيطرة القانون والنظام قد ساعد على إحداث هبوط فى الوفيات أدى إلى حصول زيادة فى السكان مقدارها ٨٣،٠٠٠،٠٠٠ خلال عقدين (من ١٩٢١ إلى ١٩٤١) وهكذا فإن الهند مستعدة الآن لقبول

زيادة أخرى ، ولا توجد حتى الآن دلائل تشير إلى أنها ستمر بالأدوار التي مرت بها كل من فرنسا وإرلندا .

وقد دخلت اليابان في المرحلة الثانية من مراحل الدورة فحدثت فيها زيادة في السكان أثر انخفاض معدل الوفيات . إن إمكانيات التصنيع قد استغلت في هذه البلاد بنطاق واسع ثبت منه بأن في إمكان الشرق أيضاً أن يخفض الولادات . ولم يسجل معدل الوفيات في اليابان انخفاضاً ملموساً ؛ بل إن معدل الولادات في الفترة الحالية تحول نحو الهبوط . وقد أظهرت الإحصائيات اليابانية بين ١٩٢٠ و ١٩٤٠ نتائج مشابهة للاحصائيات التي حصلت في إنكلترة وويلز بين ١٨٨١ و ١٩١٠ . وخلال العقدين اللذين تخللا الحربين الأولى والثانية كانت معدلات الوفيات والولادات تشبه تقريباً مثيلاتها في إنكلترة قبل ٤٠ سنة : وبهذه المناسبة من المهم أن نتذكر ، كما يقول الأستاذ نوتستين : « بأن التمدن والتهذيب في اليابان قد قطعا أشواطاً بعيدة ؛ إلا أن نمو السكان كان من نوع التضاعف الثلاثي في القرن الواحد . وقد حصلت أكثر من نصف الزيادة بعد أن ابتدأ معدل الولادات في الهبوط . ومع أن اليابان قد قدمت للعالم مثلا للتصنيع السريع فإن الاتجاه القادم لنمو السكان فيها سيعتمد على المدى الذي ستؤثر فيه الهزيمة على تطورها الاقتصادي . ولكن علماء السكان يقدرون بأن النمو لا يزال يفعل فعله بين الشعب الياباني .

وإذا عدنا إلى روسيا التي تملك مساحة واسعة من الأرض بين أوربا وآسيا ، وتلتقي فيها خصائص الشرق والغرب المتنوعة التي تتميز بها ظاهرة النمو ، وجدناها تجني الآن ثمار النهضة الإحصائية ، لأنها البلاد الوحيدة القادرة على استغلال كل إمكانيات النمو الانتقالي . فقد حصل فيها توسع صناعي كبير ، وانخفض معدل الوفيات بنتيجة التقدم الصحي والطبي . ولم يتخلل عهد التصنيع في هذه البلاد سوى هبوط ضئيل في معدل الولادات ، ومع ذلك فإن هذا المعدل حسب ما هو ملاحظ آخذ في الازدياد ؛ لأن السياسة القومية تشجع بنشاط العائلات الكبيرة ، يضاف إلى ذلك أن الوضع الحالي للاتحاد السوفياتي يشير إلى احتمال حصول زيادة في عدد النساء خلال العقود القادمة . ويتوقع فرانك لوريمر المستخدم في شعب الإحصاء في روسيا في كتابه « سكان الاتحاد السوفياتي » حصول زيادة في السكان بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٧٠ تقدر بـ ٧٠،٠٠٠،٠٠٠ . وقد وصلت روسيا في الوقت الحاضر إلى المرحلة الانحدارية من الدورة ، ودخلت كدولة أوربية في مرحلة الهبوط الأولى . وإذا ما استقرينا قوانين السكان وجدنا أن معدل النمو في روسيا لا يفوق معدل الزيادة الكبيرة في نفوس سكان جاوه مثلا تحت ظل النظام الاستعماري الهولندي ، ولكن في روسيا مجالات تمدد جديدة تتمثل في الحركة الصناعية النامية بينما سبق لجاوة أن اجتازت المرحلة النهائية من مراحل التطور الاقتصادي الزراعي . وبالإضافة إلى ذلك أن الاتحاد السوفياتي يملك داخل حدوده منطقة بكر واسعة لا تملكها أية دولة كبيرة أخرى وهي منطقة سيبيريا . فليس هناك من شك بأن روسيا تنتظر توسعاً كبيراً في السكان ، ولكن السؤال الذي يدور في بقية أنحاء العالم هو فيما إذا كان في مستطاع روسيا أن تحتفظ بهذه الزيادات داخل حدودها .

وعندما بحثنا المرحلة الثالثة للدورة الكبرى — مرحلة الهبوط الابتدائي — لم نسر خلف مالتوس لأن توقف الزيادة وهبوطها لم يكونا معروفين في الفروض المالتوسية . فبلدان أوروبا الوسطى والشمالية الغربية كانت أولى المناطق التي دخلت في المرحلة الثالثة ، في حين أن فرنسا والسويد وإيسلندا واستراليا وانكلترا وويلز ستواجه هبوطاً في عدد السكان ابتداء من سنة ١٩٧٠ . أما إيرلندا فقد استنادت كما رأينا قواها ولكنها لم تحقق أية زيادة . ويمكن إضافة ألمانيا إلى هذه المجموعة بسبب خسائرها في الحرب . كما تعاني بولندا نقصاً في السكان لم تعانه أية أمة أخرى في العصور الحديثة . إلا أن طبيعة تكوين شعبها تساعد على العلاج إذا ما توفرت الظروف الاقتصادية الملائمة . ويقول علماء الإحصاء إن شعوب أوروبا الوسطى وأوروبا الشمالية الغربية قد بلغت مرحلة النضج ، وقد أدى تحديد النسل بينها إلى إنقاص نسبة الشباب بينما رفع تقدم مستوى المعيشة من نسبة ذوي الأعمار الطويلة . وما دامت أعمار أغلبية النساء في هذه المنطقة قد تجاوزت معدل الحمل فإن ذلك سيجر وراءه زيادة في طول الأعمار يؤدي إلى توسع إنتاجي إضافي . ففي الولايات المتحدة واستراليا وزيلندا الجديدة من الممكن أن تعيش المرأة البيضاء إلى

سن السابعة والستين، كما أنه من الممكن أن تستطيع المدنية الأوربية أن تزيد معدل الحياة عشر سنوات أخرى خلال العقدين القادمين

وقد كان متوقعاً من دراسة معدلات ١٩٣٥ — ١٩٣٩ أن يبلغ نمو سكان أمريكا نهايته حوالى ١٩٨٠ . إلا أن الولايات المتحدة قد خرجت من الحرب العالمية الثانية بأرباح غير متوقعة فى النفوس ، لقد فاقت الولادات مقدار عدد الضحايا بين الشعب الأمريكى الذى لم يدخل بعدُ مرحلة الهبوط الابتدائى .

وعند هذه المرحلة من مراحل دراستنا سندخل منطقة يميل عند بلوغها علماء الإحصاء فى العصر الحديث إلى وضع إرشادات تجريبية فقط بشأنها . إن معرفة ما يمكن أن يحدث وماذا يستحب أن يحدث ، إذا ما سارت القوى الطبيعية فى مجراها الطبيعى ، تدفع الأفراد لأن يستعملوا عقولهم وإرادتهم للوصول إلى نتائج أكثر تكيفاً مع حاجاتهم ورغباتهم . وهناك بعض الباحثين لا ينظرون إلى ظاهرة النقص فى السكان نظرة جدية ، فى حين أن هذه الظاهرة قد بنيت على أسس الاتجاهات التى توجه الوقائع والقوانين . ولكن يتساءل اليوم عمن يستطيع التحدث عن التقلبات الاجتماعية التى ستظهر فى هذه الاتجاهات ؛ إذ أننا نرى أن ظاهرة زيادة السكان من الممكن أن توجه توجيهاً يساير حركات القوى الاجتماعية والاقتصادية التى تعترضها . فهل يمكن أن تفعل مثل ذلك بالنسبة لمشكلة الخوف من نقص السكان ؟ وهل ضبط النسل يمثل ثورة على بعض انحرافات النظام الاقتصادى والصناعى ؟ وهل يمكن أن يوقف إذا ما تحسنت مؤسسات اجتماعية أخرى تحسناً مناسباً ؟ والاجابة على هذه الأسئلة يجب أن تترك المرحلة النهائية من مراحل دورة السكان مفتوحة ، معترفين بأنه من المحتمل حصول هبوط مطرد بين السكان يسرى قانونه على البلدان المتقدمة فى المدنية الغربية . كما أن هناك بعضاً من الخبراء يعتقدون بإمكان ظهور نوع من أنواع الحركات الميكانيكية توازن بين السكان لتقليل الهبوط الناجم من تحديد النسل .

وإذا ما أردنا أن نطبق هذه التطورات التاريخية على مسائل السكان فى الشرق جابهتنا فى الحال — وعلى الأخص فى البلدان العربية — الصعوبات الناجمة عن تأثر الطرق الإحصائية الحديثة التى يمكن الاعتماد عليها لتنظيم دراسة متفقة موحدة . وكل ما نستطيع أن نقوله فى هذا الصدد هو أن البلاد العربية لا تزال فى مرحلة النمو الاحتمالى ، وأن مجتمعاتها مستعدة لتقبل زيادات أخرى نظراً لكثرة الموارد الطبيعية غير المستغلة إلى الآن ، ولانحطاط وسائل الاستغلال الزراعى والصناعى فيها . ولذلك فإن مثل كل السكان الحديثة لا يمكن أن تطبق على هذه المجتمعات إلا بعد أمد طويل نسبياً .

(بغداد) فؤاد طرزى
المحامى

تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

«كاهن نساء» للأديب اللبنانى سهيل ادريس :

لصاحب هذه المجموعة القصصية مجموعتان أخريان صدرا من قبل وكتبت عنهما فى مكان آخر غير «الرسالة»؛ ومعنى هذا أننى تتبعت هذا القصاص اللبنانى الشاب منذ أن كتب أول قصة حتى فرغ من آخر قصة ... هناك تطور لا شك فيه ، فالوثبة الأولى كانت وثبة الأديب الذى يعالج فن القصة لأول مرة : جناح يصعد به نحو القمة ، وجناح يهبط به إلى السفح ، وبين الصعود والهبوط تلمح موهبة أصيلة ينقصها الزمن والمران لتنضج وتكتمل. وهكذا كان سهيل إدريس فى «أشواق» .

ومضت فترة أخرى أخرج بعدها مجموعته القصصية الثانية «نيران وثلوج» ... فى هذه الوثبة الجديدة لمست أن القصاص الشاب قد قطع مرحلة بعد بها عن نقطة البدء حتى أوشك أن أن يبلغ منتصف الطريق . لقد كان خط السير فى المجموعة الأولى بكثرة تعاريجه ، يشعرك أن المؤلف لا يصل إلى نهاية الشوط إلا وهو مكدود فاتر الأنفاس ! أما فى هذه المجموعة الثانية فقد استطاع ان يبصر المسالك التى تدفع به فى خط مستقيم تقل فيه الدروب والمنحنيات ... وكانت محاولة ثالثة تبلورت فيها القطرات الأولى فى بوتقة التجربة النفسية والفنية ، وإذا «كاهن نساء» دليل مادى حى على أن الجهد والمثابرة جديران بخلق عمل فنى مهما حوى من مآخذ فهو جدير بالتهنئة ! وتبقى بعد ذلك حقيقة نسجلها قبل أن نسجل غيرها من حقائق ، وهى أن سهيل إدريس كاتب قصة أدبية سواء فى مجموعته الأولى أو فى مجموعته الثانية أو فى مجموعته الثالثة ... هذه فى رأيى ميزة كبرى ؛ لأن القصة العربية القصيرة التى نطالعها فى هذه الأيام قد فصلت عن هيكل الفن التعبيرى الرفيع ؛ لقد أخرجها القصاصون العوام من حظيرة الأدب ليلحقوها بحظيرة الريبورتاجات الصحفية !

هذا هو قصاص الأمس أشرت إليه فى كلمات ، أما قصاص اليوم فمن حقه على أن أحدد اتجاهه القصصى الجديد على ضوء هذه الخطوط الفنية : الخط الأول هو خط النزعة التحليلية التى تضحى بالحادثة فى سبيل الفكرة ذات الطابع التصويرى ، والخط الثانى هو خط التمثيل للواقع الحس عن طريق النماذج النفسية والبشرية ، والخط الثالث هو خط تحديد الزاوية التى تلائم بين الفكرة التصويرية والنموذج النفسى ، والخط الرابع هو خط امتداد نقط الارتكاز الفنية فى ثنايا العرض ، والخط الخامس هو خط التقاء العناصر الرئيسية التى تكون الهيكل الأخير للقصة الكاملة ... هذه الخطوط التى تبرز التصميم الفنى العام للقصة ، أو هذه الخيوط التى تنسج الثوب الفنى العام للقصة ، قد توفرت منها أشياء فى «أشواق» ، وتوفرت منها أشياء أخرى فى «نيران وثلوج» ، وتوفر منها الكثير فى «كاهن نساء» . هناك فى «عودة الماضى» و «أنانية» و «الخطيئة الطاهرة» و «لعنة الحب» و «القصاص» و «دموع فى الكونتنتال» ! ... إن هذا الترتيب الذى تراه هنا قد أقمته على أساس من الصدق الفنى أولا ، وعلى أساس من الصدق الشعورى ثانياً ، وأخيراً على مدار اللمسات الفكرية والنفسية فيما حدثتك عنه من خطوط القصة .

بعد هذا أقدم إليك قصة من قصص هذه المجموعة هى «عودة الماضى» ... هذه القصة فى رأيى من القصص التى تعرض لك موهبة الأستاذ إدريس خير عرض ، وتصور ملكته القاصة أكمل تصوير ، وتطلعك على نموذج قصصى ناضج يشير إلى فنه ويدل عليه . إنها قصة الحب بين فتى وفتاة ، الحب القوى الجارف الذى يجمع فى النهاية بين قلبين تحت ظل وريف من الرباط المقدس وتمضى الأيام وتصبح الفتاة امرأة ويصبح الفتى رجلا ويتخطى كلاهما دور الشباب ! ويبقى الحب بين الزوجين ما بقى الوفاء المتبادل والبيت الآمن والأبناء الأحياء . ولكن القدر يضرب ضربته ليتصدع البناء ويتفرق الشمل ويتناثر عقد السعادة حبات من دموع ! ستة عشر عاماً ذاق فيها العش الجميل الهادىء ما ذاق من ألوان البهجة وضروب النعيم ، ثم ختمت أيامه بأبشع ما يتلقاه الأحياء من معانى الألم والحسرة والعذاب ... لقد عصفت ريح الغواية بوفاء الزوجة المخلصة فنبذت منطق العقل وانقادت لمنطق

العاطفة ، وفي سبيل حبها الجديد نسيت الزوج والبيت والماضي وهذا الماضي الأثير بكل ما فيه من ذكريات ! ولم يكن الشيطان الذي طرق أبواب الجنة غير أخ تجمع بينه وبين أخيه رابطة الدم وينتهي الأمر بالزوجة الوفية إلى أن تمل السير في طريق الشباب الأفل لتنحرف إلى طريق الشباب القيم ، ولا بد من جمرة تشتعل تحت الرماد لتلهب الضمير الذي مات .. وفي رسالة يتلقاها الزوج من شريكة حياته تقع عيناه على قصة حبه الشهيد ؛ لقد مضت تستعرض فصول القصة كما وقعت على مسرح الحياة : مبتدئة بدور الزوج ، معرجة على دور الزوجة ، منتهية بدور الحبيب . ولم تنس الماجرة وهي في غمرة الوفاء للذكرى الباقية أن تطلب الصفح والمغفرة !

هذا هو الإطار الخارجي لقصة الأستاذ إدريس ، إنني لو اقتصرت عليه لبدت لك القصة هيكلا عظميا عاريا من اللحم والدم والروح ... إن الحياة تكمن هناك ، في تلك الصورة النفسية التي تعرض طبيعة امرأة ؛ امرأة يضع المؤلف بين يديك مفتاح شخصيتها وكل شخصية تمثل المرأة الخالدة ! وهذه هي الصورة التي حملتها رسالة الزوجة إلى الزوج ، أقدمها إليك منتزعة من معرض السطور : « لقد حمل نايف إلى جونا الاضطراب والخوف والعذاب ، ولكنه مع ذلك هز مني الأعماق أعنف الهز ، وكشف أمام عيني دنيا جديدة تزخر بالمتناقضات وتمتلىء بالمفارقات . ولست أدري يا صبري كيف أعبر لك عن الأثر الذي تركه أخوك في نفسي ساعة وصوله ! » ... « وسرعان ما أسبلت جفني ، كأنما خشيت أن تنفر من عيني صور كثيرة ، جلية ، تعيد إلى الماضي بحذافيره فتبعث في نفسي فيضاً غنياً من المشاعر العذبة . أجل ! إن الماضي تدفق ساعتذاك يا صبري كأنه نبع جار يحمل في ثنايا أمواجه ذكريات وذكريات » ... « وفتحت عيني مرة أخرى ، لا يا صبري ! لم يكن نايف يشبهك ، وإنما كان هو نفسك ... أجل ! كان أنت في شبابك ، يوم عرفتك للمرة الأولى . لقد رجع في نايف ماضي شبابك يا صبري ، شبابك ذاك الذي أغرمت به قبل أن يولي وعشقته يوماً حتى الجنون ! » ... « لا يا صبري ! أما لم أخنك ! إنني مقيمة على شدة إخـــلاصي لك ، إنني أحبك في نايف ، وسأظل أحبك إلى الأبد . أراك تود أن تسألني : وأولادنا ؟ وحاضرنا ؟ ومستقبلنا ؟ . لا تكن ساذجاً يا عزيزي ! أما أدركت أنه لم يبق لي شيء بعد ، وأنه لا حاضر عندي ولا مستقبل غير هذا الماضي الذي يعود ؟! » .

أرأيت كيف حلت الفكرة الناضجة من جسم القصة محل الروح ، وكيف سما بها النموذج النفسي النابض إلى الأوج ؟ ... هكذا تخلق القصة ، وهكذا تحيا ، وهكذا تتنفس ، وهكذا يكتب لها البقاء ! إنك تستطيع أن تجد في هذه المجموعة القصصية نماذج أخرى لا أقول إنها تبلغ هذا المستوى الممتاز ، ولكنها تقترب منه وتنبع من نفس المنبع وتدور في نفس الأفق .

وتسألني بعد هذا كله ماذا ينقص سهيل إدريس ككاتب قصة ؟ .. إنني أعود إلى ما سبق أن كتبته عنه في مكان آخر غير « الرسالة » ، أعود إليه لأحذف منه فقرات وأقتطف فقرات ، تبعاً لما جد من أسباب الكمال وما بقي من أسباب القصور .

إن كل ما يؤخذ على فن الأستاذ إدريس ظاهرتان : الظاهرة الأولى هي أنه لا يكاد ينظر إلى الحياة إلا من زواياها الضيقة ، تلك التي لا تتمثل الخلجات النفسية إلا في إنسان يحب وإنسانة تحب ، مع أن في الحياة زوايا متعددة وألواناً لا حصر لها من المشاعر الإنسانية ! أما الظاهرة الثانية فهي خلو قصصه من النماذج البشرية ؛ إن سهيل إدريس لا يقدم إليك نموذجاً بشرياً واحداً يمكن أن يمثل شخصية من الشخصيات المحلية في المجتمع اللبناني الذي يعيش فيه ، ومن هنا كان نقص النماذج البشرية في قصصه يفقدها عنصراً ممتازاً من عناصر التصوير الوصفي ، ذلك الذي يعني برسم الملامح الخارجية للشخوص كما هي في واقع الحياة ! وتسألني مرة أخرى عن حكمي الأخير على هذه المجموعة القصصية فأقول لك : إنها عمل فني جدير بالتهنئة !

« من وراء الأبد » ورسالة من شرق الأردن :

قبل أن أكتب إليك ما أريد كتابته عن قصتك الخالدة « من وراء الأبد » المنشورة في الرسالة الغراء العدد (٨٣٨) ، أقدم إليك تحية التقدير والثناء ، تحية القلب من الأعماق إلى روحك الطهور المثالي وقلبك الخفاق ، يفيض الإبداع في شجون القلب وشئون الفكر .

لقد ساقت إليك الأقدار فتاة أحلامك، فوجدت فيها الجمال الروحي الذي كنت تنشده في سماء الوهم يوم أن هبطت إليك وأنت على أرض البشر لتأخذ باقة من الزهور فأحببتها، وأنت تعرف جيداً زيارتها لأهلها الدفين يوم كنت تقدم لهـا تلك الباقة في صباح كل ثلاثاء، لتعطر ثرى ذلك القبر... ثم تقدمت إلى تلك الروح بغير تردد حين وجدت أنها ضالتك المنشودة، تملأ فراغ قلبك ودنياك. فلم كرهت ذهابها إلى القبر بعد الزواج، حتى أدى ذلك إلى القطيعة والفراق؟ أليس الحب شعوراً مقدساً قبل الزواج وبعده؟! ولماذا لم تستطع أن تملأ هذا الفراغ الموحش من قلبها (إن كان موجوداً) بعد الزواج بأحاسيسك وشعورك وأنت صاحب الأحاسيس، الشعور والخيال؟!

إن الحب لا يبلغ أعلى مراتب السمو إلا بالتضحية وأنت هنا لم تضح بشعورك وقلبك في سبيل إسعادها... إذ الحب المثالي العميق يقضي عليك في هذه الحالة أن تقدم إليها باقة الزهور، ولو أنك فعلت لتناست ذلك القبر الكئيب البغيض الرابض في صحراء الإمام، ولأصبح مع الأيام طيفاً ضئيلا وبالتالي تمحي وأنت مسيطر على أحاسيسها ووجدانها مالكا كل قلبها بأطيافه وأحلامه هذا إذا فرضنا جدلاً أنها ما زالت تحن إلى أهلها الأول، ولكنها وهبت لك قلبها وأخلصت لك الحب طيلة مدة الزواج، بدليل أنك لم تستشف من خلال شعورها أن هنالك طيفاً يملأ فراغ قلبها وتتشوق إليه بقلب مفجوع وأنت صاحب الشعور والنظرات العميقة، ولو لم تكن تلك العودة لما اكتشفت سرها الذي لم يكن إلا وفاء بعهد.

ألم تشعر أخيراً يا سيدي أنك سببت لها نكبة أخرى فوق نكبتها الأولى، وسببت لك لوعة تصرخ بين الضلوع كلما عاودتك ذكراها؟.. أنا في انتظار جوابك.

محمد رويش

عمان — شرق الأردن

أود قبل كل شيء أن أشكر للأديب الفاضل هذه العاطفة الكريمة النبيلة التي أملت عليه هذه الكلمات... الحق أنني لم ألتق في حقيبة البريد أجمل من هذه الرسالة ولا أطرف حول قصتي «من وراء الأبد»! هذه القصة التي حركت مشاعر الأديب الأردني الفاضل وأثارت شجونه، حتى دفعته إلى أن ينقل إلى هذا الفيض من المشاركة الوجدانية العميقة التي عشت في أجوائها يوم أن عكست من الحياة على الورق مأساة فنان جنى عليه الخيال!

لقد ظن الأديب الفاضل أن القصة قصتي الذاتية، ولعل هذا الظن قد استقر في نفسه من أن القصة كانت في رسالة.. الحق يا سيدي أنني قد نقلت القصة من حياة الناس حيث ألف القدر فصولها لا من حياتي! وصدقني إذا قلت لك إنني مازلت واقفاً على الشاطئ أرقب كل زورق حالم يمخر عباب النهر المقدس، منتظراً أن تدفع أمواج السعادة إلى شاطئ بالحلم الجميل الكبير، بالزورق الذي يمكن أن يحمل إلى أعذب أماني العمر.. وأمنى بها رفيق القلب وشريك الحياة! متى تتحقق الأحلام؟ متى تتألق الأيام؟ لست أدري!!

لفتة إنسانية للأستاذ العقاد:

قرأت في «المصور» منذ أيام مقالا تحليلياً للأستاذ العقاد حول نفسية المنتحر، وقد كتب المقال بمناسبة حادث الانتحار الذي وقع في وزارة المعارف وراح ضحيته موظف بائس.. ولست أبغي من وراء هذه الكلمة أن أعقب على هـذا التحليل النفسي الموفق الذي ورد في مقال الأستاذ العقاد، وإنما أحب أن أشير إلى كلمة حق تهز كل صاحب ضمير كضمير الرجل العادل وزير المعارف. كلمة حق نطق بها العقاد الإنسان حين طالب بمعاقبة المسئولين عن الحالة النفسية التي دفعت بالموظف البائس إلى التخلص من الحياة، فيما إذا ثبت بالتحقيق الدقيق أن رؤساءه قد حالوا بينه وبين حقوقه التي كان يطالب بها كانسان يحتاج إلى شيء من العطف والرعاية!

إننا نسجل هذه اللفتة الإنسانية للأستاذ العقاد، ونتوجه بها في نفس الوقت إلى معالي وزير المعارف.

أنور المعداوي

الأدب والفن في أسبوع

الأستاذ عباس خضر

نحن وأدباء المهجر :

كتب الأستاذ حبيب كتاباً من نيويورك إلى جريدة الأهرام، يقول إنه التقى هناك بالأستاذ عبد المسيح حداد صاحب جريدة « السائح » التي تصدر بالعربية في أمريكا ، بعد عودته — عودة الأستاذ حداد — من رحلته الطويلة في البرازيل والأرجنتين وتشيلي ، فأراد أن يستطلع رأيه في الأدب العربي بأمريكا الجنوبية ، فقال الأستاذ حداد :

إن هناك فرقاً أساسياً بين السوريين واللبنانيين في أمريكا الجنوبية وفي أمريكا الشمالية ، ويتجلى هذا الفرق بأجلى مظاهره في البرازيل ، فالسوريون وغيرهم من الناطقين بالضاد هنا — في أمريكا الشمالية — هم عرب ولكن أولادهم ليسوا عرباً . أما في البرازيل فهم عرب جيلا بعد جيل » ثم ذكر تعليلا لذلك أن العرب في البرازيل — حيث تسنى له أن يدرس أحوالها درساً وافياً دون غيرها — يحرصون على تعليم أبنائهم وبناتهم اللغة العربية ، وأن هناك كليتين عربيتين تتبعان برنامج البلاد في التعليم المدرسي وتلقنان العلوم العربية بأجمعها من صرف ونحو وبيان وبلاغة وعروض وإنشاء وبعض العلوم الأخرى بالعربية ، وقال إنه سمع كثيرين من خريجي هاتين الكليتين يخطبون ويلقون قصائد بالعربية من نظامهم ، وذكر مع الأسف أن إحدى الكليتين قد اضطرت إلى إقفال أبوابها بعد أن خرجت خمسة عشر ألف طالب ...

وأنا هنا — حين نقرأ هذه الأنباء — لتهفو نفوسنا وتتطلع إلى تلك الآفاق التي انبثقت منها ألوان جديدة معجبة من الأدب العربي الحديث ، واسترعت أنظار الأدباء ، وجرت في مشاعر الشباب ؛ تلك الآفاق التي لمع فيها جبران خليل جبران وأمين الريحاني وميخائيل نعيمة وغيرهم ، وقد امتازت آدابهم بالحرية والانطلاق والتجديد .

تتطلع نفوسنا إلى أدباء العرب في المهجر الأمريكي ، فنحب أن نطلع على كتاباتهم ، تتصل أفكارنا بأفكارهم ، كما نحب أن تتوافر لهم وسائل الإبقاء على اللغة العربية وآدابها وازدهارها هناك . وإنه لما يسوؤنا أن ننشد المجلات العربية الأمريكية في القاهرة مثلا فلا نجدها ، وتلك الأنباء تنقل إلينا أن هناك صحافة عربية زاهرة ، ونود أن نقرأ لهم ويقرؤون لنا ، ونبدى الرأى فيما يكتبون كما يبدون آراءهم فينا ، وجملة القول أن نعاملهم معاملة أدبية كاملة تعود علينا وعليهم بالفائدة المرجوة في عالم الفكر والأدب والاجتماع .

ولست أدرى من المسؤول عن الانقطاع الحالي بيننا وبين أبناء العمومة في عالمهم الجديد ، ولكننا نذكر هذا الانقطاع فنتألم له ، في الوقت الذي نرانا فيه نسعى إلى توثيق الأواصر الثقافية بين جميع بلاد العالم ما عدا العالم العربي في أمريكا ، ولنا مكاتب ثقافية في لندن وباريس وواشنطون للتعاون الثقافي بيننا وبين هذه البلاد ، فليت وزارة المعارف تنشىء مكتباً على غرار هذه المكاتب في إحدى العواصم الجنوبية بأمريكا حيث تكثر الجاليات العربية ، ويكون من عمل هذا المكتب تحقيق التعاون والتبادل الأدبي بيننا وبين أدباء المهجر ، كما يعمل على إمداد المعاهد العربية هناك بما تحتاج إليه من مؤلفات وأساتذة .

والإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، لماذا لا تمد يدها إلى هناك ؟ وهي غير مقصورة على الدول المشتركة في الجامعة فالمفروض فيها أن تخدم الثقافة العربية في كل مكان ، ويا حبذا لو ضم « متحف الثقافة العربية » شيئاً مما هناك ، وهى ترسل بعثات المخطوطات إلى مختلف البلاد الغربية والشرقية فلماذا لا ترسل بعثة لرياد الثقافة العربية المعاصرة في البرازيل والأرجنتين وتشيلي ؟

وليس الاتصال المنشود بين البلاد العربية وبين أبنائها في أمريكا ، مقصورة فوائده على الآداب والثقافة ، بل هو إلى ذلك يخدم قضايا العرب في الهيئات المالية ، وإنهم ليستجيبون لداعي

القومية العربية بدافع الشعور المشترك الذي يعززه تنظيم العلاقات، ويتحقق لنا بذلك ما لا نبلغه باستجداء الأمم الغربية التي تخذلنا أقرب مشاعرها من خصومنا.

ونحن نرى الدول الغربية تعمل دائبة على نشر لغاتها وثقافاتها في خارج حدودها وخاصة في بلادنا الشرقية، وهي ترمى بذلك فيما ترمى إلى توسيع نفوذها وكسب أصدقاء موالين لها، فما أجدر البلاد العربية أن تعين تلك الجاليات العربية الكبيرة في العالم الجديد، على تعزيز لغتها وثقافتها العربيتين. ولن يحتاج ذلك فيما أعتقد إلى جهود وأموال كبيرة، بل يكفي القليل مع العناية بتنسيق وسائل التبادل والاتصال.

تقدير وتبعات:

في غمرة الأسى على فقيد فن التمثيل المرحوم نجيب الريحاني يستطيع المرء أن يلاحظ ظاهرة تدعو إلى الارتياح، بل تبعث الاغتباط.

ذلك أنك لا تكاد تفتح مجلة أو تطالع صحيفة منذ توفى الريحاني في الأسبوع الماضي، إلا ألفيت بها رثاء له نثراً أو شعراً، وقد حفلت بعض الصفحات بالكتابة في تاريخه والتحدث عن فنه وأثره في هذا الجيل وما إلى ذلك مما يتصل به

ولم يكن ذلك إلا صدى لما يجيش في صدور الناس على اختلاف طبقاتهم من الأسف لفقد هذا الرجل والشعور بمكانته باعتباره ممثلا أدى رسالته الفنية على أتم وجه. ومعنى هذا أن الجمهور في مصر قد عرف قيمة فن التمثيل وقدر أهله إذ أصبح لهم في حسه وشعوره ما هم أهله من مكانة واعتبار، فإذا قضى علم من أعلام التمثيل أخذ الحزن عليه مظهراً عاماً، واستشعر الجميع فجيعتهم فيه، وهذا ما عنيته في صدر هذه الكلمة بالظاهرة التي تدعو إلى الاغتباط، وهي كذلك لأنها تدل على تطور عظيم في حياتنا، إذ تغيرت نظرتنا إلى التمثيل والممثلين من حال إلى حال، ولا تزال للحال الأولى آثار باقية، وإن كانت في سبيل الزوال، تلمح ذلك فيما تنشره بعض الصحف من أن يوسف وهبي أو عبد الوهاب أو غيرهما من الفنانين، يعتزم ترشيح نفسه عن دائرة كذا في الانتخاب القادم لعضوية مجلس النواب، وهي تنشره على أنه أمر طريف جديد، ولعله كذلك فعلا لأننا لم نعهد بعد

كشكول الأسبوع

▫ أخذت وزارة المعارف في العمل على تحقيق رغبة ملكية سامية أعلنت أخيراً، وهي أن يقوم بكل منطقة من المناطق التي تنشئها الوزارة للأقاليم قاعة محاضرات ومكتبة يتردد عليها الراغبون في التزود من العلوم والآداب والفنون.

▫ تلقت وزارة المعارف كتاباً من جامعة درهام بانجلترا، ذكرت فيه أنها اعتزمت إنشاء قسم للدراسات الشرقية يبدأ عمله من أول السنة الدراسية المقبلة، وطلبت موافاتها بطائفة من الكتب العربية القديمة والحديثة، وبعضها من تأليف مصريين معاصرين.

▫ كانت اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية قد كتبت إلى وزارات معارف الدول العربية، طالبة إلى كل منها تأليف لجنة قومية لتنسيق العمل الثقافي بين دول الجامعة، وخاصة تمثيلها في المؤتمر الثقافي العربي، ولم تتلق اللجنة إلى الآن نبأ بتأليف هذه اللجان إلا من وزارة المعارف المصرية على الرغم من مضى مدة طويلة وأخيراً بعثت بكتاب دورى تستحث فيه سائر الدول العربية أن تسارع إلى تأليف اللجان المطلوبة كما فعلت مصر.

▫ لاحظت إحدى دور الكتب بنيويورك أن بعض الكتب يسرق من قاعة المطالعة، فأرادت أن تعرف أي الكتب يسرق أكبر عدد من نسخه، فكانت النتيجة أن الكتاب الذي يسرق كثيراً هو التوراة.

▫ تتخذ الآن إجراءات تعيين الأستاذ محمود محمد شاكر في القسم الأدبي بدار الكتب المصرية.

▫ يرى الأستاذ علي محمود طه وكيل دار الكتب، أن يخصص قسم في قاعة المطالعة بشؤون السودان، يضم كل ما في الدار من مؤلفات في هذه الشؤون، ويطلق عليه « ركن السودان ».

▫ بعثت جريدة الأهرام إلى الأستاذ علي محمود طه بخمسة عشر جنيها، لقاء نشر قصيدته « عرائس البحر » في عددها الخاص بالصيف، ولما علم بذلك الأستاذ توفيق الحكيم أبدى رغبته في أن يكون شاعراً ... ولعله الآن يعالج قرض إحدى المطولات.

▫ صدر أخيراً كتاب « الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام » للأستاذ محمد سيد كيلاني، وهو يشتمل على تاريخ الحروب الصليبية وآثارها في الحياة الاجتماعية وفي الأدب نثراً وشعراً، ثم التعريف بمشاهير الكتاب والشعراء في ذلك العصر. وقد أحسن المؤلف بإكثاره من الشواهد، لأن أدب تلك الفترة أكثره مخطوط لم تعرفه المطبعة بعد، فجاء الكتاب جامعاً مفيداً، إلى ما فيه من بحث مستنير.

▫ وجهت الجامعة العربية إلى وزارة الخارجية كتاباً تطلب فيه الاتصال بوزارة المالية، للسماح لدور النشر في القاهرة أن تصدر الكتب إلى البلاد العربية دون اشتراط ورود أثمانها عن طريق البنوك، وذلك أسوة بما يتبع نحو الصحف والمجلات المصرية.

نواباً من المشتغلين بهذه الفنون مع جدارتهم بأن يأخذوا المكان اللائق بهم في قيادة الأمة .

وقد كان الريحاني من القلائل الذين أعلوا قدر التمثيل في مصر إذ جعلوا له أهدافاً في المجتمع وسايروا به ارتقاء العلوم وسائر الفنون في مصر ، فأثبتوا أنهم من المضطلعين بترقية الأمة والناهضين بها . والريحاني أول ممثل ظفر بنشان النيل ، وأول ممثل تفضل جلالة الملك بإرسال مندوب عنه لتشييع جنازته ، وأول ممثل أعرب جلالة الملك عن حزنه عليه بعبارة كريمة سامية .

وبعد ، فذلك هو الوعي القوي نحو فن التمثيل وتقدير أهله ولاشك أن هذا التقدير يلقى على فنانينا تبعات نحو فنهم والإخلاص له وإفادة الناس منه ، وعلى مقدار شعورهم بهذه التبعات ونهوضهم بمقتضياتها يتوقف مصير الفراغ الذي عاش وأثر بعض الشيء ولا يزال في حاجة إلى تعهد وعناية ورعاية ليؤتي أكله على ما يشتهي الجميع .

قضية « عيسى بن هشام » والإذاعة :

عرضت على قاضي التحضير بمحكمة مصر الكلية يوم الثلاثاء الماضي ، القضية المرفوعة من خليل بك المويلحي مؤلف كتاب « حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن » ضد الإذاعة ، لأخذها تمثيليات من الكتاب وإذاعتها بلغة عامية مبتذلة ، على ما فصلناه في عدد مضى من الرسالة . وقد أجل نظر القضية إلى جلسة ٧ نوفمبر القبل أمام محكمة مصر الكلية .

وأذكر بهذه المناسبة أني وقفت على مقال عن ذلك الكتاب المستشرق الفرنسي هنري بريز عضو المعهد الفرنسي بدمشق ، في المجلد العاشر من مجلة الدراسات الشرقية لسنة ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ قال فيه : « إن حديث عيسى بن هشام يعد في طليعة الكتب المؤلفة في الأخلاق والعادات والنقد الاجتماعي ، وما من شك في أنه كان العامل الأول في بناء صرح النهضة الحديثة للغة العربية ، وإن سلاسة لغته وسجعه غير المتكلف ليعيدان إلى الذاكرة أسلوب الكتابة الفنية لجنكور والإنشاء الخيالي لدوبيان . ولقد صور المويلحي الحياة المصرية في شتى مظاهرها الاجتماعية بقلم جريء وصراحة واضحة وإخلاص بالغ حد القسوة في تصوير الحقائق الواقعة تصويراً دقيقاً أذكرنا كتابة بلزاك وفلوبير . وإنه لن المتعذر على أي أديب أن ينسج على منوال حديث عيسى بن هشام أو أن يصل إلى سمو أسلوبه مقلداً ، فقد بلغ المثل الأعلى للإنشاء الوصفي ودقة تصوير المجتمع ولقد سطع نوره في فجر النهضة الحديثة للأدب العربي ، فحذت آثاره خطاه المقامات الأدبية وهدى نوره الرجعيين القدامى من كتاب الأدب ، واسترشد بسناه المجددون من الأدباء فسلكوا من بعده الطريق المعبد إلى المستقبل المثمر »

والواقع أن حديث عيسى بن هشام يعد المحاولة الوحيدة الناجحة في عصره لإحداث فن قصصي جديد في الأدب العربي الحديث ، ومن المحاولات المخفقة التي عاصرته « ليالي سطيح » و « صهاريج اللؤلؤ » ، ومما يؤسف له أشد الأسف أن تتخذ الإذاعة ذلك العمل الأدبي التاريخي الخالد ، ذريعة إلى إحداث فن جديد في تمثيلياتها العامية الهابطة المسفة ، فن يجري فيه الحوار بمثل : (يا حلمبوحة) و (يا مدهول يا منيل على عينك) وغير ذلك من ألفاظ اللغة التي يدعو إليها سلامه موسى بدلا من العربية الفصيحة !

والإذاعة بذلك لا تكتفي باستباحة كتاب لم يتصدق به عليها مؤلفه ، بل تعمد إلى تحريف أهدافه عن مواضعها وتهوي به إلى براثنها العامية ، بعد أن سلك سبيله إلى نهضة أدبية مثمرة

خمر وجمر :

تلقيت من الأستاذ عدنان أسعد رسالة ذكر فيها ما دفعه إلى كتابة ما كتبه في « الرسالة » عن كتابه « خمر وجمر » منذراً من يقرظه بأنه سيعتبره مأجوراً ، قال : « إن جماعة من الأدباء والشعراء الأصدقاء أجمعوا على أن كتاب (الخمر والجمر) كتاب يعتاص على الفهم وتحتاج معاني شعره ونثره إلى التذييل والشرح الطويل . ومن ثم ذهبوا إلى أن أية كلمة يكتبها الكاتب في تقريظ الكتاب لا تخرج عن كونها واحداً من اثنين : إما أن الكاتب المقرظ قد غمض عليه معنى في بطن الشاعر أو ظهر الناثر .. فأراد أن يظهر للناس علمه وفهمه بكلمة التقريظ حتى يقول الناس : قرأ وفهم ثم هضم . وإما أنه « مأجور » أو « مدفوع » بدافع الصداقة ، وللصداقة تكاليف ، أو « مرجو » يجيب رجاء الراجي

البريد الأدبي

رد وتصحيح :

حضرة الأستاذ الفاضل رئيس تحرير مجلة الرسالة :

يأبى الأستاذ كاتب التعقيبات إلا أن تكون له الكلمة الأولى والأخيرة في إنتاج الأدباء وفي ذواتهم ، وتثور ثورته ، إذا ما وجد كلمة حقة هادئة أو متحمسة ، رداً على تعقيباته ، وهذه مجافاة للروح الأدبي الرياضي المنشود .

وقد كان نصيبي من الرد على بعض تعقيباته ، حملة شعواء على شخصي وأدبي ، في العدد (٨٣٣) المؤرخ ٢٠ / ٦ / ١٩٤٩ أما حملته على شخصي فأترك جزاءه لمجال آخر ، ويهمني الآن تصحيح الرد على ما جاء في هذه التعقيبات من وقائع غير صحيحة

فقد زعم الكاتب أني سعيت إليه بوساطة رسول كريم لكتابة كلمة ، ولو صغيرة عن كتابي « الشعر المعاصر » وإن هذا الرسول الموفد من قبلي — كما يقول — دبت قدماه في سبيل هذه الكلمة وإن الكاتب صارحه بأنه لو كتب عن هذا الكتاب لأهان قلمه وأهان (الرسالة) وأهان عقول القراء وهذه قصة خيالية ، ابتدعها التوهم ، فإن مركزي الاجتماعي ، وتاريخي الأدبي الطويل ، وخلق الترفع ، تدحض جميعاً ، ما أسند إليَّ من لهفة لكلمة منه ، يقدمني بها كما يقول ، إلى الناس ، فلست في حاجة إلى التقديم ، وبحوثي الأدبية والاجتماعية ، منذ أكثر من عشرين سنة وكتبي التي أخرجتها كفلت لي التقدير من الخاصة .

وأما عن كتابي « الشعر المعاصر » فقد حفلت به البيئات الأدبية وأنصفته الأقلام الممتازة ، وحفلت به وزارة المعارف واقتنت منه عدداً « ضخماً » لمكتباتها كما ازدانت مجلة الرسالة ذاتها بكلمة عنه من قلم أحد محرريها ، وهو زميل للكاتب المعقب في التحرير ، ومما جاء في قوله بمجلتكم الصادرة بتاريخ ٤ / ١٠ سنة ١٩٤٨ « لا يسع متتبع الحركة الأدبية إلا أن يلتفت لهذا الكتاب ويهتم به لأنه كتاب جديد في المكتبة العربية ، وهو أول مؤلف في موضوعه » وقوله في خاتمة كلمته : « وحسب الأستاذ السحرتي أنه وضع بكتابه هذا لبنة في بناء الأدب العربي الحديث » .

فما رأى الأستاذ المعقب في زميله ، وما رأيه فيما كتبته السيدة الأديبة « ابنة الشاطىء » وهي من جماعة الأمناء التي ينتمي إليها إذ قالت عن الكتاب الذي يباع بالرطل في الأسواق « والكتاب يكاد يكون دائرة لشعراء المعاصرين فلم يدع الأستاذ المؤلف شاعراً عرفه أو قرأ له إلا سلكه في هذه الدراسة ، وقدم نماذج من شعره ، ويجد القارئ إلى جانب هذا عرضاً طيباً لمذاهب النقاد وأساليبهم في وزن الشعر وتقويمه ، كما يقرأ خلاصة لمقاييس النقد الأوربي الحديث مطبقة على شعرنا المعاصر » .

وزعم الأستاذ المعقب أن الدافع لكلمتي بالمقتطف « النقد والتعقيب » راجع إلى أنه لم يكتب كلمة عن كتابي ، ونسي أنه ذكر في صدر كلمته أنني تلميذ للأستاذ سلامة موسى وأن كلمتي في المقتطف كانت دفاعاً عنه . والحق يشهد بأني لا أدافع إلا عن كرامة الأدباء كيفما كانت ألوانهم وإني قد وهبت قلمي المتواضع للدفاع عن الحقيقة منذ تخرجي في الحقوق من ثلاثة وعشرين عاماً إلى اليوم ، وقد شهدت منابر القضاء والخطابة والأدب عفة لساني وقلمي ، كما سجلت صفحات الكتب مبادئ الأدبية والديمقراطية والوطنية ؛ فقول الأستاذ المعقب بأني من التشكيلة العجيبة ، التي تريد إرهاب كل من يحاول تصحيح آرائه بها يحمل اتهاماً باطلا ، وما كان يسائغ بأي حال من الأحوال أن يلوذ الأستاذ الكاتب إلى مثله .

ولا يخيب آمال ذوي الآمال فكان جوابي على هؤلاء . إنكم أرضيون ماديون والكتاب على شاكلة شأنه روحاني المذاهب سماوي الجناح مطلق السراح . . وصاحب القلب الكبير والروح الطليق من أسهل السهل عليه أن يستوعب الكتاب من الغلاف إلى الغلاف في جلسة أو جلسات بغير ما حاجة إلى تذييل أو شرح طويل » .

وأقول للأستاذ عدنان : إني أراك تقرظ الكتاب ، ولا يسعني — على الرغم من بيانك السابق — إلا أن أعتبرك « مأجوراً » من المؤلف ... ولك تحيتي .

عباس خضر

وليس هذا المكان مجالا للرد على ماورد فى تعقيبات الأستاذ الكاتب من عبارات مهينة لاداعى لذكرها ؛ لأن قاموسنا الأدبى قد خلا من مثلها خلواً تاماً .

ولكن لنا أن نطرح هذه الأسئلة تعقيباً على كلمة الأستاذ الكاتب وعلى طريقته فى الكتابة ، هل يجوز للكاتب من الوجهة القانونية أو الأدبية أن يترك عمل الأدباء ويتناول أشخاصهم ؟ وهل يباح للأدباء الدفاع عن أنفسهم ، والرد على نقد ناقديهم ؟ وهل يصح فى شرعة الأدب محاولة النقص من كرامة الأدباء للاختلاف فى الرأى ؟

والجواب الصحيح على هذه الأسئلة ، وهو محور النقد الأدبى السليم أن الناقد ليس حاكما بأمره ، وليس له تناول أشخاص الأدباء تناولا غير كريم وأن للأدباء أن ينقدوا النقدات الموجهة إليهم وهذه الآراء التى ندين بها هى محور الخلاف بيننا وبين كاتب التعقيبات .

مصطفى عبد اللطيف السحرتى

هذا هو الرد الذى بعث به إلى « الرسالة » الأديب صاحب التوقيع وفى الأسبوع المقبل يقرأ ويقرأ معه القراء تعقيبنا على هذا الرد .

أنور المعداوى

الألفاظ بين الحقيقة والمجاز :

يعرف أبناؤنا دلالات الألفاظ فى حقائقها ومجازاتها ، و « العلاقة » الرابطة بينها سواء أكانت المشابهة أم للارسال ، وقد كتب مدعى تذكير الضبع — بتصحيح موهم — ينفى رواية (قومى لم تأكلهم الضبع) ... (بقومك) مما لا يبعد الضبع عن أن تكون مؤنثة ! فان التصحيف فى المضاف إليه واقع فى أشعار الفدائى ، بل إن « زهر الآداب » وغيره تحتشد شواهد متعددة دالة على عدم إبعاد المعنى مع وجود هذا التصحيف .

لكن الكاتب — كدأبه — يريد الضرب فى منحى دعوى البحث ؛ فتوقعه الورطة فى مأزق المغالطة ؛ فالإضافة إلى ياء المتكلم أو كاف الخطاب لم تخرج الضبع على أنها « اسم للحيوان المعروف » ! وهى مؤنثة !

أما الباحثة فى الحقيقة والمجاز ؛ فنكبر « المجمع اللغوى » على عرضهما فى معرض الإفادة ، لكنا نشير إلى أن التجوز بلفظة « الضبع » إلى السنة المجدبة لن يبعدها عن وضعها فى حقيقتها ، لأن الحقيقة أصل المجاز !

فما إجداء سياقة الكاتب ومكاثرته وهو لم يستشهد على « تذكير » الضبع ، ولم يبق فى « تحقيقه » الأخير ما يباعد بين وضع اللفظ والتجوز فيه ؟ .

إننا لم نخطئ فى الاستشهاد لأن حقيقة اللفظة باقية على مدلولها فى إفادة الحيوان ، ولم نبعد فى الرواية لأن اختلافها لا يقدح فى صحة الإيراد ، ولم نجانب الصواب فى التأنيث لعدم ورود ما يباعده ؛ فلعل الكاتب لا يتورط فيما يدعو إلى المؤاخذة والتوجيه

(بور سعيد) **أحمد عبد اللطيف بدر**

تعقيب على تعقيبات :

قد وردت بالتعقيب الأول من تعقيبات الأستاذ الفاضل أنور المعداوى بالعدد (٨٣٢) من الرسالة — جمل من هذا القبيل : « لم يكن يعرف . لم تكن تتيح » وهى بينة الخطأ . وصوابها حسب استعمالات العرب — أن ترى على هذه الهيئة : « لم يكن ليعرف . لم تكن لتتيح » ؛ لأن كان المنفية بما ، وبكن المنفية بلم لا يرد بعدها الفعل المضارع إلا مسبوقاً باللام المؤكدة للنفى . ويسمونها لام الجحود .

وقد ورد القرآن الكريم بهذا الاستعمال قال تعالى : « لم يكن الله ليغفر لهم » .

محمد غنيم



صـــديقان حميمان

للكاتب الايطالى لويجى بيراندللو

كان جيجى ميار ينتظر مركبة الترام لتقله كاعتاده إلى طريق باسترينو حيث مقر عمـله وكان متدثراً بمعطفه ذلك الصباح ، وقد وضع منديله على أنفه ، ويديه فى قفاز انجليزى صفيق وإن المرء إذا ما جاوز الأربعين ، فإن ريح الشمال لا تعد مزاحا .

إن كل امرىء يعرف أن مركبة الترام لن تقبل بأية حال إذا كان فى انتظارها . فإما أن تتعطل فى منتصف الطريق لانقطاع التيار الـكهربائى ، أو تختار مركبة تمر عليها ، أو شخصاً سيء الحظ تدهمه تحت عجلاتها . وكانت ريح الشمال الباردة تهب بشدة فى ذلك الصباح . وجعل جيجى ميار يرفع رجلا وينزل أخرى ، وهو يراقب النهر وقد بدا كأن المسكين يشعر بالبرد القارص أيضاً .

وأخيراً أقبلت مركبة الترام تدندن ، وأخذ جيجى يستعد للقفز فيها وهى سائرة دون أن تقف ، عند ما سمع صوتاً آتياً من بونت — كافور ينادى « جيجى ، أيها الصديق العزيز ، جيجى » فالتفت فرأى سيداً يهرول قاصداً نحوه ، يلوح بذراعين كأنهما عمودا التلغراف . وفى تلك الآونة ابتعدت مركبة الترام وكان عزاء جيجى على ابتعادها أن وجد نفسه بين ذراعى السيد الغريب الذى لا بد أن يكون صديقاً حميما له ، إذا حكم على ذلك من عنف القبلتين اللتين طبعهما الرجل على المنديل الحريرى الذى يغطى وجهه

وقال الرجل — أنعلم أنى عرفتك فى الحال ، أيها العزيز ؟ ! ألا تخجل من نفسك ؟ أعطنا قبلة يا عزيزى ابلوغك هذه السن . إنك تبدو وكأنك كنت واقفاً فى انتظارى . وعند ما شاهدتك تمد ذراعك لتتعلق بمركبة الترام اللعينة قلت لنفسى « هذه خيانة محض خيانة » . فقال ميار وقد علت شفتيه ابتسامة مغتصبة — نعم ، كنت ذاهباً إلى المكتب .

— أرجوك ، لا تحدثنى عن مثل هذه الأشياء المنفرة .

— لماذا ؟ — إنى أعنى ذلك . فى الواقع أخ .

— أنت شخص غريب الأطوار أتعرف ؟

— نعم أعرف . ولكن خبرنى ، إنك لم تكن متوقعاً رؤيتى ، أليس كذلك ؟ إنه يبدو فى وجهك .

— حسن ، كلا ··· فى الواقع .

— لقد وصلت مساء أمس . وأخوك يرسل إليك تحياته. وهو — على فكرة ، سأجعلك تضحك — لقد أراد أن يبعث إليك بكتاب يقدمنى فيه إليك ! ··· فقلت « ماذا ! كتاب تبعث به إلى جيجى الصغير ؛ ألا تعلم أنى أعرفه قبل أن تعرفه أنت ؟ نحن صديقان منذ الطفولة ، ورفيقان فى الدراسة الجامعية ألا تذكر بادوا القديمة الشهيرة ؟ وذلك الناقوس الضخم الذى لم تكن تسمعه مطلقاً ؟ فقد كنت تنام مثل — مثل — ماذا أقول — مثل الزغبة ! أظن كان يجب أن أقول ، كالخنزير . حسن ... وعند ما سمعته — مرة واحدة — حسبته إنذار حريق ··· ما أحلى تلك الأيام ! إن شقيقك فى صحة جيدة ، وشكراً لله ، فنحن مشتركان فى عمل صغير . وأنا هنا من أجله ، ولكن ، ماذا بك؟ إنك تبدو كالجنازة . أمتزوج أنت ؟

فأجاب جيجى ميار فى دهشة وشدة — كلا يا عزيزى !

— على أعتبة الزواج ؟ — أمجنون أنت ؟ بعد سن الأربعين ؟ يا إلهى ؟ كلا . لم أفكر فى ذلك مطلقاً .

— أربعون ! إنك تبدو فى الخمسين أيها الصغير جيجى . ولكن ، لم لا ؟ لقد كدت أنسى أن وجه غرابتك هو فى أنك لا تسمع ما يحدث — من الأجراس والسنين . خمسون يا صديق العزيز ، خمسون سنة ، أؤكد لك ذلك . لقد ولدت .. دعنى أفكر .. فى أبريل عام ١٨٥١ ، أليس كذلك ؟ ١٢ من أبريل .

وصاح ميار قائلا فى لهجة من التأكيد — لا تؤاخذنى ، فى مايو . ولا تؤاخذنى أيضاً عام ١٨٥٢ ، أتعرف أحسن منى ؟ ١٢ مايو سنة ١٨٥٢ ، وعلى ذلك فسنى الآن ٤٩ سنة وبضعة أشهر

— وبلا زوجة ! هذا عظيم ! أنا متزوج ، ألا تعرف ؟ آه ، بلى ، إنها مأساة . سأجعل جانبيك ينفجران من الضحك ، وفى أثناء ذلك ، سأعتبر نفسى بالطبع ، مدعواً للغداء عندك . أين تأكل هذه الأيام ؟ ألا زلت تقصد مطعم باربا القديم ؟

وتعجب جيجى فى دهشة بالغة وقال — يا إلهى ، أتعرف أيضاً أنى أذهب إلى باربا ؟ أظنك كنت من رواده .

— أنا ، عند باربا !؟ كيف أكون هناك وأنا فى بادوا ؟ لقد علمت وسمعت من ذهابك أنت والآخرين ، تقصدون — أيحق لى أن أقول الحانة ، أو الهيكل ، أو مكان الأكل ؟

فأجاب ميار — سمها الحانة ، أو ما شئت ، ولكن إذا كنت ستتناول طعام الغداء معى فلا بد أن أخبر الخادم بذلك .

— صغيرة ، أليس كذلك ؟

— أوه ، كلا ، عجوز يا صديق ، عجوز . فضلاً عن أنى انقطعت عن الذهاب إلى بارنا . ثم لم أتردد عليه منذ ثلاثة أعوام .

فأنت فى سن معينة ... — بعد الأربعين

— بعد الأربعين ، يجب أن نتحلى بالشجاعة ، وندير ظهرك للطريق الذى قد يؤدى بك إلى الهاوية . فإن أردت التردى — حسن ، فليكن ذلك ، على أن تنزلق فى بطء ، فى منتهى البطء وفى خفة ، حاذراً ألا تتدحرج ، أو تتعثر فتسقط . حسن ، هاقد وصلنا . سأطلعك على ما قت به من عمل طيب بسيط لدارى الصغيرة

وأخذ صديق جيجى ميار يردد قائلا وهو يصعد الدرج خلفه — فى بطء ، فى منتهى البطء ، وفى خفة .. عمل طيب بسيط .. دارك الصغيرة . مخلوق ضخم التكوين مثلك يتأنق ! مسكين أنت يا جيجى ! ما الذى فعلوه بك ؟ أحرقوا ذيلك ؟ أتود أن تترقرق عيناى بالدمع ؟

فقال ميار وهو ينتظر حتى تفتح الخادم الباب — حسن ، يجب أن نكون فى وفاق مع وجودنا الثمين ، عند هذه المرحلة من العمر . دلل هذا الوجود ، تملقه حتى بالتوافه ، وإلا جملك تافهاً . إنى لا أود بأية حال من الأحوال أن أجد نفسى مدفوناً فى حفرة عمقها أربعة أقدام . لا ، لست أنا .

فقال الآخر يحاول أن يجادله فى هذه النقطة — إذاً فأنت تعتقد فى الرجل أنه حيوان من ذوى الساقين ؟ لا تقل إنك تعتقد ذلك يا جيجى الصغير ؟ أنا أعرف أية مجهودات أبذلها لأظل قائماً على قدمىّ . صدقنى يا صديق ، لو تركنا الطبيعة تسير فى طريقها لأصبحنا من ذوات الأربع . إن هذه المدينة اللعينة تهدمنا لو كنت من ذوات الأربع لأصبحت حيواناً متوحشاً جميلا ، ولرقصتك رقصات عديدة بسبب ما حدثتنى عنه ، ولأصبحت بلا زوجة ، وبلا ديون ، وبلا هموم . أتريدنى أبكى ؟

ودهش جيجى من حديث صديقه ، ذلك الذى هبط إليه من السحاب وجعل يتأمله وينقب فى أركان ذهنه عن اسم ذلك الشيطان ، وكيف ومتى عرفه فى بادوا ، سواء فى طفولته أو فى دراسته الجامعية . واستعرض فى مخيلته أصدقاءه الحميمين كل من كان يمهدهم فى تلك الأيام ، دون أن يطابق أحدهم ملامح هذا الرجل . على أية حال ، أنه لا يجرؤ على سؤاله ، فقد كان يخشى أن يجرح شعوره بعد أن بدت منه كل هذه المودة . فعزم على أن يعرف الحقيقة عن طريق اللف والمداورة .

ومكثت الخادم مدة طويلة دون أن تستجيب إلى قرع الباب فقد كانت لا تتوقع أوبة سيدها سريعاً . وقرع الباب مرة أخرى وأخيراً سمع وقع أقدامها .

وقال لها ميار : ها أنذا قد عدت ثانية أيتها الفتاة العجوز ومعى رفيق فاعتنى به ، وانتبهى ، فلا يقبل مزاحاً مع صديقى هنا ، صديق ذى الاسم الغريب ...

فقال الرجل وهو يضحك مما جعل المرأة لا تدرى هل تشاركه ضحكه أو تعبس فى وجهه : « إنسان متسلسل من تيس بقرنين ولحية ! » . ولا يميل أحد إلى التعرف بذلك الاسم الجميل ، اسمى . أيتها الفتاة ! لقد جعل وجوه مديرى البنوك تلتوى ، والدائنين يترنحون . ما عدا زوجتى . كانت مسرورة به . إنه الاسم الوحيد الذى وهبته لها . ادخل يا جيجى ، ودعنى أرى رياشك ومتاعك المسكين .

وقاده ميار وقد خاب أمله من جراء فشله فى معرفة اسمه ، وجعل يطلعه على شقته الصغيرة وغرفها الخمس ، وقد امتلأت بالرياش فى عناية وترتيب . وزاد عذابه فى غرفة الاستقبال عند ما سمع صديقه يتحدث فى مودة كبيرة عن أشيائه العائلية ، ويتطلع إلى الصور القائمة فوق الموقد ويقول :

— وددت يا جيجى الصغير لو كان لى زوج أخت مثلك . لو عرفت أى وغد تزوجت أختى ؟

— أيعامل شقيقتك معاملة سيئة ؟

— كلا ، بل يسىء معاملتى أنا . لقد كان من الهين عليه أن يساعدنى فى عسرى . ولكن لا ، ليس هو الذى يفعل ذلك .

— أرجو المعذرة ، إنى لا أذكر اسم زوج شقيقتك .

— لا داعى للاعتذار . إنك لا تذكره ؛ لأنك لا تعرفه . إنه لم يقدم إلى بادو إلا منذ سنتين . أتدرى ما الذى فعله بى ؟ إن شقيقك كان رؤوفاً بى ووعد أن يساعدنى ، إذا قبل هذا التيس أن يبدل سنداتى — ولكن صدقنى ، لقد رفض أن يفعل ذلك . وشقيقك ، مع أنه قريب ، قبل أن يأخذ مشكلتى بين يديه

وهو ساخط ناقم عليه. فلأخبرك عن سبب رفض زوج شقيقتي لقد كانت شقيقته سيئة الحظ فوقعت في شراك حب .. يا للفتاة المسكينة! لقد سممت نفسها...

فقال ميار: — توفيت؟

— كلا، لقد لفظ جوفها ما ابتلعته؛ ولذلك شفيت. ولكنك تستطيع أن تدرك أنه أصبح من المستحيل على أن أطأ عتبة دار شقيقها بعد هذه المأساة. يا إلهي ألا تأكل؟ أصبحت لا أرى من الجوع. أكاد أموت جوعاً كالذئب!

وعند ما كانا يتناولان الطعام على المائدة جمل جيجي ميار يدفعه عن طريق الثقة المتبادلة بين الأصدقاء، على أن يحدثه عن أخباره في بادوا، لعله بذلك يزاق لسانه فيذكر اسمه على الأقل. وكان ضيفه إذ ذاك يزداد شيئاً فشيئاً. فقال له حدثني عن بعض أخبارك — كيف حال فالفيرد مدير بنك إيطاليا، وزوجه الحسناء وشقيقتها الحولاء، ألا يزالون في بادوا؟

وإذا بصديقه ينفجر ضاحكا. فقال ميار في دهشة — ما الأمر؟ أليست شقيقتها حولاء؟ فرجاه الآخر أن يكف عن أسئلته وقد ارتجف بدنه وتملكه نوع من التشنج من كثرة الضحك الذي كان يحاول كتمانه دون جدوى، وقال له — أصمت لحظة، بحق السماء، أصمت. حولاء؟ لم أكن أعتقد أنها كذلك. وذلك الأنف المتسع الذي ترى منه مخها! نعم إنها نفس المرأة.

— أية امرأة؟ — زوجتي!

وشده جيجي ميار دهشة. ولم يبق له من قوته إلا ما يستطيع بها أن يتمتم ببعض كلمات الاعتذار. ولكن ظل الرجل سادراً في ضحكه أكثر من ذي قبل، إلى أن هدأ أخيراً، ثم عبس، ثم أخذ نفساً عميقاً، وأخيراً قال: — يا صديقي العزيز، هناك في الحياة بطولة لا تستطيع حتى مخيلة الشاعر أن تتصورها.

فتنهد ميار قائلا: — نعم، حقاً، أنت على صواب ... إني أعرف ما ذا تعني.

فعارضه الآخر قائلا: — إنك لا تعرف شيئاً مطلقاً. أتعتقد أني أنوه عن نفسي؟ أنا البطل. أنا لست إلا الضحية! إن الشجاعة صفة نادراً ما تتحلى بها شقيقة زوجتي، زوجة لوسيو فالفيرد اسمع لي قليلا. يا إلهي ما أغباك أيها الرجل!

— كلا، أنا أنا! في خداع نفسي بأن زوجة لوتشيو فالفيرد تعشقني، لدرجة أنها تزوجت زوجها. ولكن ماذا تظنه حدث؟ مثال من الروح التي لا تبالي في سبيل التضحية، كما ستسمع. دعتني ذات مرة إلى دارها، وكان زوجها متغيباً. وعندما حدثت اللحظة الأولى التي فوجئنا فيها سوياً، أخبأتني في حجرة شقيقتها السيدة الحولاء، فاستقبلتني في حياء وخجل، وبدت كأنها تضحي بنفسها في سبيل شرف أختها. ولم يكن عندي متسع من الوقت لأصيح .. ولكن يا سيدتي العزيزة، انتظري لحظة. كيف يصدق لوتشيو ذلك .. فقد اندفع لوتشيو غاضباً مزمجراً. وتخيل أنت الباقي.

فصاح ميار متعجباً — ماذا؟ أنت، بكل ما فيك من ذكاء؟

فقال الآخر — ودوني؟ فقد رفض مدى بما يلزمني من المال. دعنا من ذلك الحديث أرجوك. على أية حال وازنت بين حقيقة كوني لا أملك فلساً، وبين عدم رغبتي في الزواج ..

فقاطعه ميار قائلا: — ما ذا؟ أتزوجتها؟

— أوه، كلا، إنها هي التي تزوجتني. إنها هي التي تزوجت فقط. لقد حدثتها في ذلك وكلمتها بكل صراحة. قلت أيتها السيدة، إذا أردت اسمي. حسن، إذاً، خذيه. إني أكاد لا أعرف ما الذي أفعل به، أقسم لك. أكاف هذا؟

وجازف ميار قائلا: — إذاً فهذا ما حدث؟ لقد كان اسمها فالفيرد، ثم أصبح الآن ...

فضحك الآخر وهو يهب قائماً — تماماً.

وهتف جيجي ميار، وقد أصبح لا يحتمل أكثر من ذلك وتمالك شجاعته بين يديه وقال: كلا، اسمع، لقد تمتعت معك بصباح طيب. وعاملتك كما لو كنت أخي. والآن يجب أن تقدم لي معروفاً. — لعلك تود أن أقرضك زوجتي؟

— كلا، شكراً. أود أن تخبرني عن اسمك.

فسأله في دهشة وهو يطرق بإصبعه على صدره، وكأنه يشك في وجوده — أنا؟ اسمي؟ ماذا تعني؟ ألا تعرف؟ ألا تستطيع أن تتذكر؟ فأجاب ميار معترفا في حياء — كلا، أرجو المعذرة، سمني أكبر رجل عديم الذاكرة في العالم. ولكني أكاد أقسم أني لم أرك مطلقاً.

— أوه، عظيم جداً، عظيم جداً! يا عزيزي جيجي الصغير، ضع يدك في يدي. إني أشكرك من أعماق قلبي على حسن

ضيافتك — ولكنى سأذهب دون أن أخبرك . وهذا كل ما هنالك !

فانفجر جيجى ميار صائحاً وقد هب واقفاً على قدميه — ستخبرنى ، عليك اللعنة ! لقد أرهقت عقلى طول الصباح ولن أدعك ترحل دون أن تخبرنى .

فأجابه الآخر فى هدوء وثبات — اقتلنى ، قطعنى إرباً ، ولكنى لن أخبرك !

فأخذ ميار مرة أخرى يعدل من لهجته وقال — كن رجلا طيباً . إنى لم أجرب مثل هذه التجربة من قبل — فقدان الذاكرة — أنت تعرف . إنى أقسم لك أنه شعور مؤلم . تخبرنى عن اسمك بحق السماء . — ابحث عنه بنفسك .

— استمع إلى . إن ضعف ذاكرتى لم يمنعنى عن السماح لك بالجلوس على مائدتى . وفى الواقع ، حتى إذا لم أكن أعرفك على الإطلاق ، فقد أصبحت الآن عزيزاً لدى . صدقنى . إنى أشعر بشعور الأخوة نحوك ، وأعجب بك ، وأود أن تظل معى دائماً . تخبرنى إذاً عن اسمك .

فقال الآخر فى حزم — لا فائدة ترجى من ذلك . أنت تعرف أنك ستنسانى إذا ما رحلت . كن عاقلا . أتود أن تحرمنى من تلك اللذة التى لم أكن أتوقعها ، لذة تركى إياك دون أن تعرف من يكون ضيفك ؟ كلا .. اذهب .. إنك تطلب الشىء الكثير . إنى أرى جيداً أنك لا تملك أية ذاكرة نحوى . فإذا لم تكن تود أن تجرح شعورى بذلك النسيان ، فدعنى أذهب كما سأفعل الآن

فصاح جيجى بغضب عاصف — اذهب إذاً ، سريعاً ، هذا كل ما أطلبه . إنى لا أحتمل رؤيتك بعد الآن .

— حسن ، إنى ذاهب . ولكن اسمح لى أولا بقبلة صغيرة يا جيجى الصغير .

فأجاب ميار صائحاً — إنى أرفض ، إلا إذا أخبرتنى . .

فقاطعه الآخر قائلا — كلا ، كلا ، هذا كل ما هنالك .

والآن .. إلى اللتق . وذهب ضاحكا . والتفت إليه وهو يتأهب فى نزول الدرج ؛ وأرسل إليه قبلة فى الهواء . . .

محمد فهمي عبد الوهاب

مطبعة الرسالة